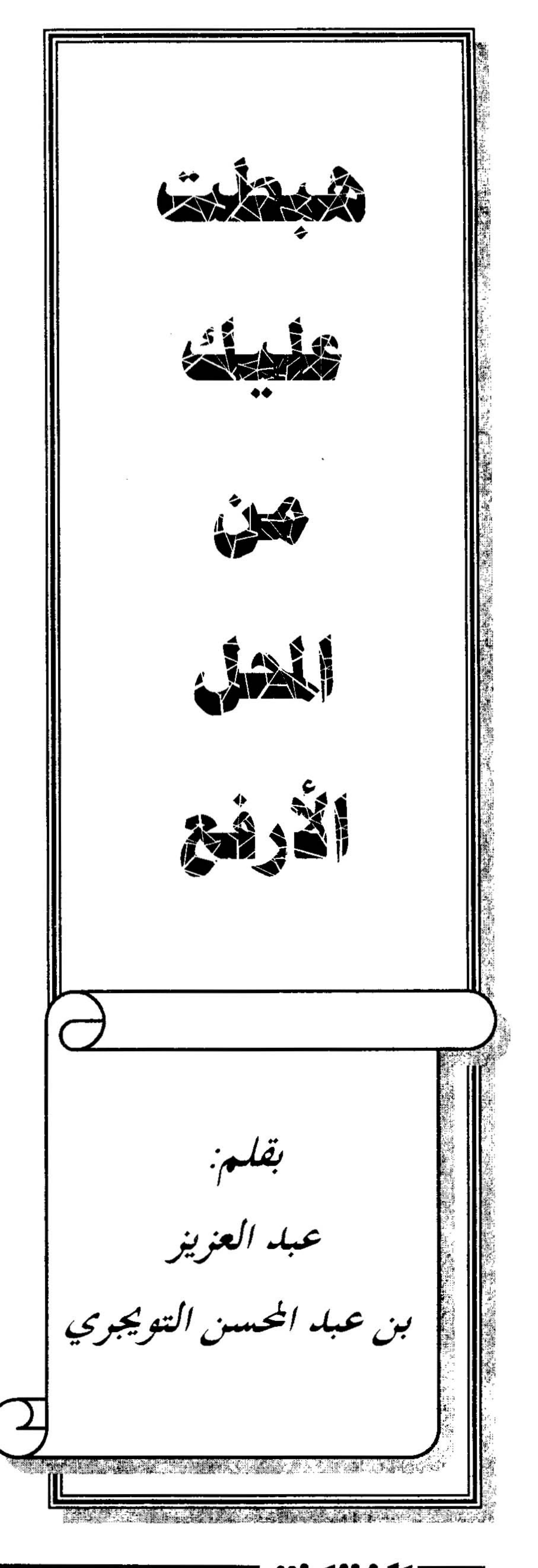


إلى كل قلب خفق بالحب، وحمله بين جوانحه إشراقة روحية..

إلى كل من كابده من أجل أن يكون للحياة معناها الكريم..

إلى كل من قهر شروره وأعطى خيره..

إلى كل من لم تحمله أنانيته وقصر نظره على تجاوز القيم والمثل..

إلى كل من ألهمه إيمانه وألهمته بصيرته رؤية المدفن على عتبة بيته فاتعظ..

أهدي هذه الرسائل....

ولدي..

يوم يقف الإنسان أمام مرآة هذا الكون ويمد عنقه على مرآته يطاوله، ألا يمكن له أن يتساءل ما هذه الأجرام الكونية الضخمة؟ ما هذا البعد اللامتناهي؟ ما هذه الشموس والأقمار؟ ما هذه النجوم التي ضربت خيامها في القبة الزرقاء؟

لا أدري من ألقى السؤال تلو السؤال في تاريخ البشرية؟ ومن لم يلقه أو يدر عن ذلك شيئاً، هي حالة لا يثيرها في نفس الإنسان إلاَّ إحساسه وشعوره وتساؤله عن دوره في هذه الحياة، واللائمة التي كثيراً ما لازمتني وأثارت السؤال تلو السؤال عندي أهي جنازة خائفة من الدفن أم إنها حمامة دوح:

هبطت عليك من المحل الأرفع

ورقاء ذات تحجب وتمنع

صورة الجنازة في الكفن أهي الشجرة التي لا منازل لورقاء الفيلسوف سواها تحط عليه ثم ترحل عنه؟ أتراها سعدت بهبوطها على هذه الشجرة ومرافقتها في هذه الحياة؟ لا أتصور أن السعادة هي في منازل الشجرة الإنسانية إذ صارت إلى أطيان وأتربة وجوع كجوع الذئاب أبداً، لا تكون السعادة إلاَّ حين تظل الشجرة مورقة مليئة بالحياة نظيفة في جذورها لا تقبل شراباً إلاَّ من مياه السحب، فهي لا ترد المياه الكدرة ولو أعياها الظمأ، لأن الطين والمستنقع عائلة واحدة.

وما ملهاتي وتحويل ذرات الرمال التي تحركها الرياح داخل نفسي في هذه الرسائل، إلاَّ محاولة تسير إليك وهي خائفة وغير آمنة في طريقها مع الخطأ والصواب، لكن السنين الطويلة التي أتعجل معها الوقوف أمام تلك الصورة التي علقها الشاعر القديم على حائط الزمن وقال:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آلة حدباء محمول

تجعلني أحاول كثيراً أن أختفي وراء الضباب في مثل هذه اللقاءات معك، ولكن الضباب غير الغمام وغير السحب، هو جهام كثيراً ما حجب ضوء الشمس والقمر عن الإنسان وأخطر منه ضباب النفس.

ولدي..

لماذا هذه الزلزلة النفسية هذا الهذيان؟ أأنا تائه أبحث عن هاد ودليل؟ أم أني رجل تسلطت عليه فكرة التناقض والتداعي فأحالها إليك وديعة من ودائع النفس وميراثاً من مواريث الآباء؟ كثيراً ما أطرح السؤال، وقليلاً ماأجيب عليه، لأن الذين تصوروا أنهم أعطوا لكل سؤال جوابه وأسرفوا في ذلك ما أكثر خطأهم وما أقل صوابهم! فالطريق الواسعة التي تمشي عليها أقدام التساؤلات يقابلها في الطريق الضنك الجواب متعالياً على ألاَّ يقول لا أدري..

وهنا مربط الفرس في تاريخ البشرية..!

وقصتي مع الحياة كلما فتحت كتابها لأقرأه جفلت منه، وجفولي كجفول جمل لم يُدَرِّبهُ صاحبه على تجاوز الظلام في دروب وعرة: كلّما فر طائر من أمامه جفل، وكلما اعترضه شبح من أشباح الصور جفل حتى لم يبق لراكبه مكان على ظهره، والرعب وحب الحياة إن كان في الإنسان أو الحيوان في طبعه منذ تكوّن.

أهي حالة لازمته في فطرته وفي تكوينه؟ أهو لقاح حملته كل أنثى في جيبها الخاص ثم أخرجته منه حاملاً معه هذا الميراث؟

لا أدري!

ما أجمل لا أدري وأقواها متكأ يسند عليه الإنسان الجاهل عجزه وضعفه حتى لا يسقط في الفراغ..

ولدي..

متى يصغي الإنسان إلى ما في داخله؟

متى يبحر في جداول النفس؟

متى ينزل من فوق التلال الترابية والجبال الرملية إلى أن يرى المعنى الكريم الذي أكرم به هذا الإنسان؟

أيمكن لي هنا أن أتساءل، ما معنى الكرامة التي أكرمه الله بها؟

أهي صورته التي كثيراً ما أوقفها أمام مرآته متجملاً لها ظاناً أن المرآة تجيبه، هذا هو الجمال وهذه هي الكرامة..

أصحيح أن الإنسان قدّر نفسه ووعى مفهوم الكرامة؟ أيجوز لي أن أتجاوز صورتي في المرآة، أو صورتي يوم ألبس ثياب عيدي؟ أأتجاوز نفاق المنافقين من حول عمرو أو زيد؟

ولكن إذا تجاوزت كل هذا فإلى أين أتجه؟ لست حديد البصر، فجدتنا زرقاء اليمامة لم تورثني قوة بصرها، غير أني لا أقول أتصور، ولكني أؤمن كل الإيمان أن للإنسان شأناً عظيماً ودوراً جسيماً قليل من وعاه وصانه!

يوم تقابلني نفسي في مراحل العمر وتقف أمامي وأنا مع مثل هذه الرسائل أخجل من أشياء كثيرة لا أحملها هنا ولا أقبل أن تكون محسوبة على آدميتي التي أكرمها الله. لو فعلت ذلك لتناقضت الحقيقة وتبددت وصارت إلى فراغ وتناقض لا تعود إليه صورته الجميلة.

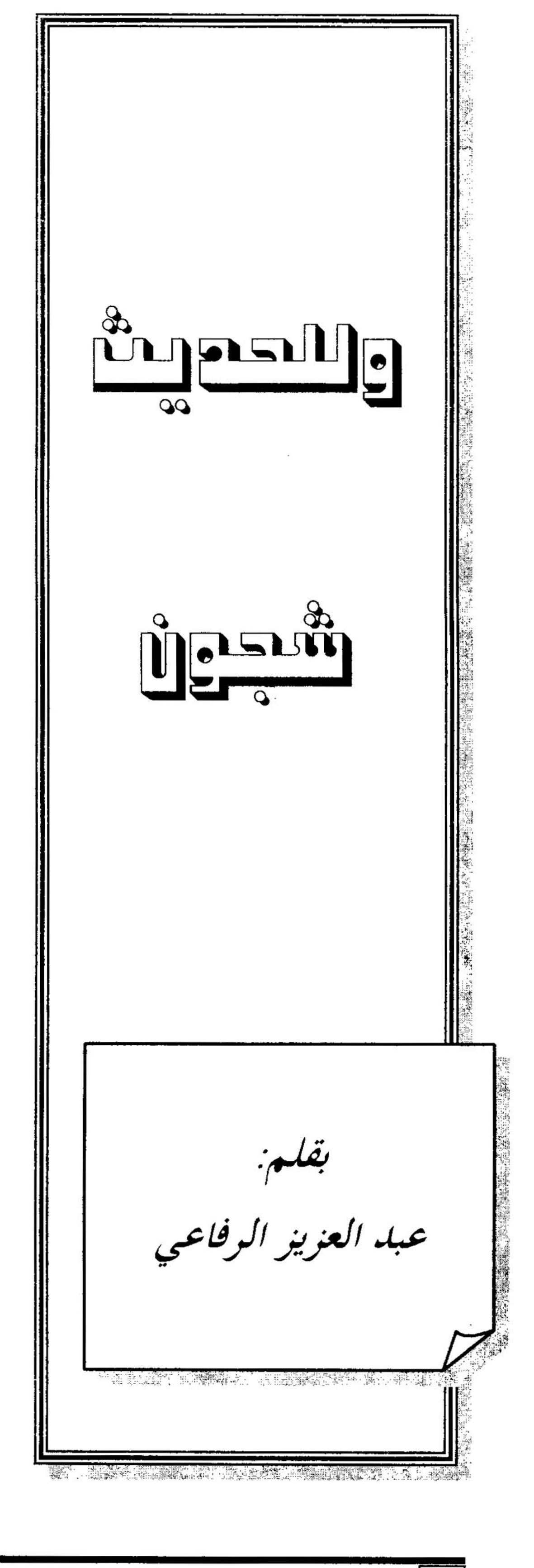
ولمن يحاول أن يغالط في الحقائق نفسه، عليه أن يدرب هذه النفس ويفك إسارها الذي قيدتها به علل كثيرة وأمراض خلقية، وليجر التجربة مع التساؤلات ومع الطريق النظيف، ليمد ذراعه وإن كان قصيراً ما بين الكهف الذي هبط منه وأخلى مكانه لأوجاع الأم وبين المدفن الذي أعده له أجله وظل في انتظاره صباح مساء.

هذه المسافة القصيرة جداً بكل ما فيها من أوجاع وآلام ومعاناة، بكل ما فيها من مجهول ورعب وخوف وتسلط إن كان في داخل النفس أو خارجها، ألا يمكن أن نعلق العبرة والموعظة أو الصورة فوق حائط الذهن لا لنخلق الشقاء ولكن لنوجد التفاؤل ولننصرف في إتجاه الفضيلة..!

ولدي..

أتراني تحولت إلى واعظ؟ نعم، سأظل واعظاً لك بكل وسيلة من الوسائل التي أستطيع أن اقبض عليها، ثم بعد هذا لعلك تطرح السؤال: هل ما يقوله أبي هنا أو هناك سلوك شامل كل مراحل حياته ومالك عليه تفكيره؟ وهل كان أميناً في ممارسته؟ فأقول لك لا ألف مرة، أنا غريق مع الغرقى، لأني غريق هذا صراخي وهذا ندائي لمن يستطيع أن يأخذ بيدي ويساعدني من خيار الناس الذين قد لا نحس بهم ولا ندر بهم..

ربما تواروا في أعماق القاع لأن فيه الأصداف الثمينة وتركوا السطح لفقاقيع الأمواج الصاخبة والثائرة بالغضب..



يذهب بعض نقّاد الأدب.. المعجبين بالجاحظ.. أن الجاحظ كان له سلف.. وكان له خلف.

أما السلف فهو الأصمعي.. وأما الخلف فهو التوحيدي.. وقد يتلمسون لنا المبررات التي تجعل ذلك سلفاً، وذلك خلفاً.. ولكن بالرغم من هذه المبررات، سواءً هنا أم هناك.. يظل الجاحظ متفرداً متميزاً.. لا يلحق غباره لا هذا ولا ذاك. فالأصمعي راوية نعم، وضليع فيما ألمّ به من علوم، فهذا أيضاً نعم، وقد استفاد منه الجاحظ. نعم ولكن الجاحظ اختط لنفسه خطاً، واتخذ طريقاً، وضم إلى علوم الرواية علم الأدب، فبرز فيه وحلق.

وأبو حيان التوحيدي تتبع أثر الجاحظ، وإن تفردت شخصيته عنه.. وهو في ذاته قمة أدبية، وصاحب أسلوب متميز.. ولكنه - في نظري - قصّرت به أسبابه عن اللحاق بالجاحظ، وليس هذا ثقيلاً من شأنه، ولا من سعة اطلاعه وثقافته.. ولا طعناً في حسن إدراكه، ولا في قدرته على تنويع مصادر اطلاعه أو في قدرته البيانية.

كلا فإن العكس هو الصحيح، فإن لأبي حيّان قدرة بيانية عالية.. وأسلوباً ماتعاً، وسعة اطلاع، وقدرة على الإبداع، وعلى الغوص في أعماق المعاني والأفكار.. وعلى تنويع معارفه.

كل هذا صحيح.. ولكن.. لماذا ظل أبو حيّان شبه مغمور لأحقاب وأحقاب..؟ ولماذا لم تشتهر كتبه..؟ ولماذا ظل بعض المثقفين منقبضاً عنه، أو متحفظاً تجاهه..؟

والسبب في نظري.. أن أبا حيّان كان سوداوي المزاج، منقبضاً عن الحياة والناس والمجتمع، تمكنت منه عقد نفسيه لم يستطع

أن يتحـلل منها أو يحللها فكان طبيعياً، والأمر كذلك، أن يبادله الناس انقباضاً بانقباض.. وقد أضرّ به ذلك أيما أضرار.. وجعله يعيش فقيراً محروماً، بينما كان يتطلع إلى الثراء و المجد، تطلعاً ملحاً.

وكان ينطوي على شيء غير قليل من الغرور، أو لعله لإسراف في الاعتداد بالنفس، وكـان مـن الصعب جداً أن يتم لقاء بين هذا الاعـتداد المسرف، وبين فاقته.. فقد اضطرته أسـباب العيـش، أن يحـاول القرب إلى ذوي الوجاهـة والمـال والحظوة من السلطان، مثل الصـاحب ابـن عـباد.. ولكـنه لم ينجح في استصـحابه.. ذلـك لأن الصـاحب كـان ذا استعلاء، وكان من الصعب على أبي حيّان أن يعيش في كنفه فلا عجب أن اختلفا فافترقا.

ولقد كان الجاحظ كاتباً ساخراً.. بل هو رسـام كاريكاتوري، فرشاته قلمه، استطاع أن يستخدم سخريته حتى من نفسه فيسخر منها، وبذلـك توصل، وربما بطريقة عفوية إلى حل عقـده.. أو بـالذات عقدة (الدمامة) وجحوظ العيـنين.. وأن يكـون رجـلاً مقـبولاً خفيف المحمـل، انعكسـت خفة روحه على أسلوبه، فكـان رائقـاً سائغاً على أنه على درجة عالية من الجودة.

السـخرية عند هجاء عند أبي حيّان.. فبيـنما(يفـرغ) الجاحظ حشده النفسي تفريغاً مـرحاً، يعمد أبو حيّان إلى تفريغ جام غضبه عـلى خصـومه.. فيشـبعهم شتائم وتشنيعاً، ويـتفرغ لذلـك، فيؤلف- مثلاً - كتاب مثالب الوزيرين في ذم الصاحب وابن العميد.

وأستطيع أن أقول؛ إن نفسية الجاحظ، كـانت متفـتحة للحياة والأحياء.. بينما كانت نفسيه أبي حيّان مغلقة..

وكـان نـتيجة الفرق بين الحالتين أن يعيـش الجاحظ منسجماً مع بيئته، وأن يتفرغ لأدبـه وعـلمه.. وأن يكـون أدبـه مخطوباً مـرغوباً فيـه، وأن يعيش أبو حيّان في حرب مـع نفسـه ومع الناس، وأن تكون طموحاته أكـبر من وسائله.. وأن يشغله ذلك عن امتداد فروع علمه وأدبه، بل لقد دمرّ جانباً من علمه وأدبـه، حينما أحرق بعض كتبه، أو كتبه كلها فـلم يسلم منها إلا ما كان في أيدي الناس، أو تـلك الكتب التي أراد لها أن تسلم من الحريق ليذيع عن طريقها نقمته وهجاءه.

وبقـدر مـا كسب الأدب العربي، من انطـلاق الجـاحظ، موسوعات ورسائل وعلماً وأدبـاً وفنّاً، خسر مثل كل ذلك لانقباض نفسية أبـي حيّان، فهو لو انطلق لكان قريع الجاحظ، أو ربما تخطاه وفاقه.. من يدري؟

وبذلك خدمت الظروف مكانة الجاحظ، فظلت متفردة.. محلقة.. قد يدنو منها آخرون ولكنهم لا يصلون إليها.. تخطى الأصمعي، ولم يسـتطيع أبـو حيّان أن يتخطاه لم يستطيع أن يصل ذروته.

ومـن خـلال الـنظرة المذهبية، يُعد الجاحظ من أئمة الاعتزاز ومؤسس الجاحظية. وهـو فـي ذلك لا يوارب، ولكنه يسوس أمره بدهـاء. فلا يكون محل النقمة السافرة.. بينما الأمـر مختلف عند أبي حيّان، فالشكوك تحوم كـثيراً حـول عقيدته وسلامتها من الشوائب. ويذهـب بعـض الباحثين إلى أنه أحد أعضاء إخـوان الصـفا، أو أحد المساهمين في إعداد رسـائلهم المعـروفة.. وحول رسائل الصفا، وإخـوان الصـفا، يـدور لغـط كثير كما هو معروف.




أصبو إليك..!!

شعر: خالد الخنين

أنـــا لـــم أزل أصـــبو إليـــك ســـعيدا
وأروم وصـــلاً مـــنك ليـــس بعيـــدا

يـــا غـــادةً مـــلأتْ حيـــاتي نشـــوةً
جيـــداً يـــرق عـــلى الهـــوى وقـــدودا

طـــافتْ بعمـــري نســـمةً شـــفافةً
وهفـــا لهـــا قلـــبي صـــباً وورودا

حســـناءُ فاتـــنةُ الـــزمان وســـحرها
شـــغل الحواضـــر والـــدنى والـــبيدا

هـــي مـــن ربـــوع مـــا تـــزال بطيـــبها
تـــزهو ربـــاً عـــبر المـــدى ونجـــودا

حمـــل الهـــوى مـــنها أرقَّ عذوبـــة
والطيـــرُ يصـــدحُ بالغـــرام نشـــيدا

هيفـــاءُ رائعـــةُ الـــدلال كأنهـــا
غصـــنٌ لـــبان لا يطيـــق حســـود







ولكـــم أحـــسُّ بدفـــئها عـــند الـــلقا

كالـــــنار تلســـعُ لا تطيـــق بـــرودا

حفظـــتْ عـــلى الأيـــام ودَّ حبيـــبها

يـــا طيـــب مـــا حفظـــت هـــوىً وعهـــودا

غـــابتْ فقـــلتُ: كـــم الحيـــاة كئيـــبةٌ

تـــبدو وهـــذا القـــلب بـــات وحيـــدا

وإذا أتـــت تـــبدو الحيـــاة جميـــلةً

عيـــداً يمـــرُّ عـــلى الصـــحاب فعيـــدا

قُومـــي ونـــاجي دوحـــنا يـــا حـــلوتي

فـــالدوح يشـــتاق الهيـــام قصـــيدا

نـــاجي ديـــار الأهـــل كـــم يحـــلو بهـــا

ســـهرٌ لصـــبح لا يـــرومُ رقـــودا

تـــلكم دروب الذكـــريات ولـــم تـــزل

تحيـــا لـــودِّ الذكـــريات شـــهودا

مـــن غيـــرُنا مـــلأ الحيـــاة محـــبةً

وشـــكى عـــلى الـــبعد الحـــزين صـــدودا؟

حـــتى إذا مـــرتْ بـــنا أيامـــنا

خلْـــنا طـــريقَ العُمـــر كـــان حَصـــيدا







يـــا مـــن تحـــن إلى الديـــار وأهـــلها

لا بـــدَّ مـــن لقيـــا تكـــون أكيـــدا

عشْـــنا هوانـــا وحدنـــا وكأنـــهُ

قـــد كـــان شـــيئاً رائعـــاً وفـــريدا

يـــبدو كـــبيراً فـــي القـــلوب وربَّمـــا

عشـــنا نـــراهُ مـــدى الســـنين وليـــدا

أنـــا لا أحـــب مـــن الوعـــود كـــثيرها

فهـــل اختصـــرت إلى الـــلقاء وعـــودا

أهـــلي ومـــا نســـيَ الفـــؤاد ودادهـــم

كـــم أضـــرموا نـــار الفـــؤاد وقـــودا

أنْ ألـــتقي بهمـــو فتـــلك هـــي المـــنى

عـــبر الـــزمان.. وأنْ إليـــك أعـــودا

يـــا جـــارة الـــبيد الحبيـــبةِ كُـــلَّما

طـــاب الحـــنينُ طلـــبتُ مـــنه مـــزيدا

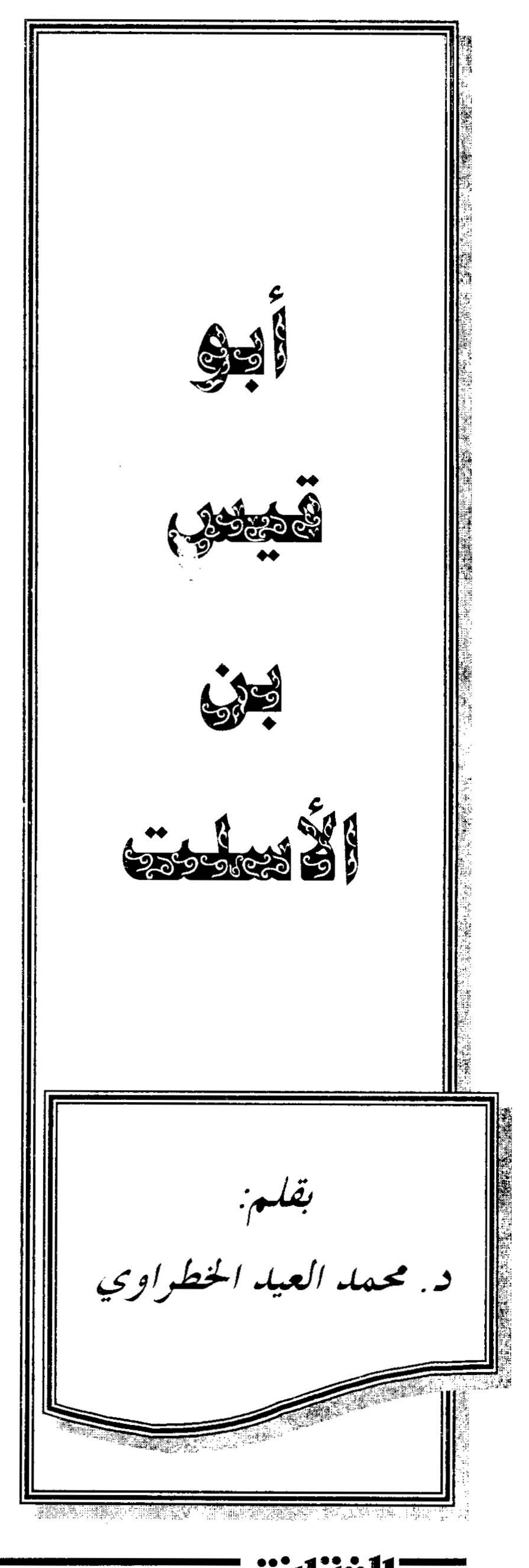
كـــانت ريـــاضُ القـــلب أشـــهى ديـــرةٍ

وهـــوى الـــرياض غـــدا الهـــوى المقصـــودا

أن نلـــتقي حـــلم الحيـــاة جميعهـــا

يـــا دار أحـــبابي وطـــبْتِ خُـــلودا



كانت يثرب (المدينة المنورة) في العصر الجاهلي تزخر بمجموعة ممتازة من الشعراء، بلغوا من حيث الكمّ ما لا يقل عن ستة وثلاثين شاعراً، وشأوا من حيث الكيف كثيراً من أقرانهم في البيئات الأخرى، بحيث تجاوزت شهرتهم البيئة اليثربية، كقيس بن الخطيم، وأحيحة بن الجلاح، وأبي قيس بن الأسلت، ووصلت أسماء بعضهم ملوك الحيرة والشام كحسان وابن رواحة، وكعب بن مالك، كما اعتمد علماء اللغة والمقعدون لها بعد ذلك في البصرة والكوفة وغيرهما على كثير من أشعار أولئك الشعراء في النحو والبلاغة والنقد والمعاجم اللغوية.

ولعل أبا قيس بن الأسلت من أهم الشعراء الجاهليين في يثرب.

وسنحصر حديثنا هنا عنه.

نسبه

هو صيفي بن عامر الملقب بالأسلت بن جُشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عُمارة بن مُرة بن الأوس بن حارثة بن عمرو (مزيقيا) بن عامر (ماء السماء). فهو يلتقي مع ابن الخطيم وأحيحة في الأب الثامن، وهو مالك بن الأوس.

أما عن سبب تلقيب أبيه بالأسلت فقد قال صاحب اللسان في مادة (سلت) (والأسلت: الأجدع، وبه سميَّ الرجل، وابو قيس بن الأسلت الشاعر.. وأصل السلت: القطع). فلعل في أنف أبيه بعض القطع، ويلاحظ أن اسمه

صيفي بن عامر، وشهرته أبو قيس بن الأسلت، فهو معروف بكنيته ولقب أبيه.

أسرته

هو من بني وائل، وإليهم ينسب، فيقال: أبو قيس بن الأسلت الوائلي وبنو وائل قوم من الأوس كانت منازلهم بجوار أبناء عمومتهم: بني أمية، الذين كانوا يسكنون عوالي المدينة، وبني عطية الذين كانوا يسكنون قبلة رحبة قباء الآن في صَفنة، التي سميت كذلك لارتفاعها عن السيول، فلم تشرب بشيء منها، فمنازلهم فيما يبدو واقعة بين هذين الفخذين من الأوس.

هذه هي أسرته الكبيرة، أما أسرته الصغيرة فإن المراجع لم تحدثنا عن أبيه ولا عن أمه، ولكن يبدو أن أمه أوسية، لأن هذا هو الوضع المعتاد بينهم، وما شذَّ عن ذلك عُرف وذكر بين الناس، كما أن والده فيما يظهر كان رجلاً مستور الحال إن لم يكن من الموسرين، لأنه لم يترك في نفوس أبنائه ما يدل على حب المال والحرص عليه، كما لاحظنا لدى أحيحة بن الجلاح، فأسرته على هذا النحو كانت من أوساط القوم، ولكننا نفهم من تلقيب والده بالأسلت أنه ربما كان من محاربيهم، وأن أنفه - على تفسير صاحب اللسان - أصيب في بعض حروبه بجدعة ظاهرة أنست الناس اسمه منذ ذلك اليوم، وقبلها هو وأبناؤه دون إبداء أي اعتراض، لكونها سمة بطولة ومدعاة فخر، ولعل هذا مما هيأ الشاعر لقيادة قومه في حروبهم بعد ذلك ورئاسته فيهم.

وذكر المؤرخون لصيفي ثلاثة إخوان هم: وحوَحْ - وكنيته أبو حصن - والحُصَين، والنعمان. أما الحُصين فهو الذي قامت بسببه الحرب الرابعة بين الأوس والخزرج، وذلك أن تنازع مع أحد بني مازن بن النجار، فقتله، فلما علم بنو مازن بذلك ترصدوا للحصين وقتلوه، فثارت ثائرة أخيه صيفي، وقاد حرباً ضروساً ضد قاتليه، واشتفى من الخزرج جميعاً، ثم دارت الدائرة عليه وانهزم بالأوس هزيمة شنعاء، وهنا كان لأخيه وحْوح موقف، كان نتيجة الفشل وقال له: لا تزال مهزوماً من الخزرج، وردَّ عليه أبو قيس (صيفي) شعراً فقال:

أبلغْ أبا حصنٍ، وبعضُ الـ
ـقول عندي ذو كبارهْ
أن ابن أُمِّ المرء ليْـ
ـس من الحديد ولا الحجارة

وعاش وحوح هذا حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ولم يْسلم، بل كان ممن حزّب الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة، مع زمرة من يهود بني النضير هم: حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وإثنان من قومه من بني وائل، هما: أبو عمَّار، وهَوْذة بن قيس.

وأما أخوه النعمان فإن ابنه [illegible]، هو الذي قتل يزيد بن مرداس السُّلمي - أخا

عـباس بـن مرداس الشاعر - ثأراً لابن عمه قيـس بـن أبي قيس، الذي كان يزيد قتله في بعض حروبهم.

وزوجـة أبـي قيـس هي كبشة بنت ضَمرة بن مال بن عدي بن عمرو بن عوف، وهـي أوسية أيضاً من بني عمرو بن عوف، وهي التي عناها في مطلع مذهبته حين قال:

قـالت - ولم تقصد لقيل الخنا -
مهـلا، فقـد أبـلغت أسـماعي
أنكـرْتِه حيـن توسَّـمْته
والحـرب غُـولٌ ذات أوجـاع
مـن يـذق الحـرب يجدْ طعمَها
مُـرّاً، وتـتركهُ بجَعْجـاع

وذلـك أنـه رجـع إليها بعد حروب مـتوالية كان رئيسها، شاحباً متغير اللون، فلم تكـد تعـرفه حين دق عليها الباب وفتحت له، فدفعـته وأنكـرته، فقال: أنا أبو قيس، فقالت: والله ما عرفتك حتى تكلمت.

وذكـر المؤرخون لشاعرنا أبنين هما: قيـس الـذي ذكـرنا قـبل قليل أنه قتله يزيد السُلمي، وبه كانت كنيته، وله يقول والده:

أقيـسٌ إن هـلكتُ وأنـت حـيٌّ
فـلا تَعـدَمْ مواصـلة الفقيـر

ولكـن ابن حجر يذكر قيس بن صيفي بن الأسلت ضمن أسماء الصحابة، ويورد كلام أبـي الفرج السابق، بقوله: (ويحتمل أن يكون وقـع هذا، "يعني الثأر" في الإسلام، ومع ذلك فموت قَيس قبل أبيه يمنع ما اقتضاه هذا النقل أنـه عـاش بعد أبيه، فيتعين أن يكون له والد آخـر) وكـأن كلام ابن حجر يوحي بأن الجمع بين الروايتين أن هناك أبنا للشاعر يدعى قيساً قـتل في الجاهلية، وولداً آخر سماه قيساً بعد وفاة الأول لمكانته عنده، وبخاصة أنه تكنّى به بيـن الناس، وهذا الأخير هو الذي أسلم وكان مـن الصحابة، وحاول الزواج من أمرأة أبيه، فنزلت الآية بإبطال ذلك، ولكننا نرجح أن يكون قيـس قُتل فعلاً في الجاهلية، وأن المذكور في الصحابة من أبناء أبي قيس هو ولد ثالث فعلاً، ولكـن اسـمه حصن لا قيس، سماه بذلك بعد مقـتل أخيه الحصين بن الأسلت، فقد قال ابن حجر نفسه في مكان آخر (حسن بن أبي قيس بن الأسلت الأنصاري)، ذكر الثعلبي في تفسيره أنـه خـلف على امرأة أبيه بعد موته، فنزلت الآيـة: ((ولا تـنكحوا مـن نكـح آباؤكم من النساء..)) .

والـثاني هو عقية، وقد عاش إلى أن أكرمه الله بالإسلام، واستُشهد يوم القادسية.

عصره

قـال ابـو الفرج بعد أن أورد نسبه: (وهـو شاعر من شعراء الجاهلية) وقال عنه الجاحظ، وهو رجل يمان من أهل يثرب، وليس بمكـي ولا تهـامي ولا قريشـي، ولا حـليف قريشـي، وهو جاهلي) فهو إذن شاعر جاهلي صـرف، يرجح أنه مات في السنة الأولى من

الهجرة، كما نص على ذلك ابن الأثير في كلامه عن حوادث السنة الأولى من الهجرة حين قال: (وفيها جاء أبو قيس بن الأسلت إلى رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام، فقال: ما أحسن ما تدعو إليه، سأنظر في أمري ثم أعود). فلقيه عبد الله بن أبي المنافق، فقال: (كرهت قتال الخزرج، فقال أبو قيس: لا أسلم إلى سنة، فمات في ذي القعدة) ومثله أيضاً ما أورده ابن سلاَّم: (وذكروا أنه أقبل يريد النبي ﷺ فقال له عبد الله بن أبيّ: خفتَ والله سيوفَ الخزرج.. قال: لا جرَم، والله لا أسلم حولا، فمات في الحول) ويحدد ابن عساكر وفاته بذي الحجة فيقول: (ثم انصرف إلى بيته، فلم يعد إلى رسول الله ﷺ حتى مات قبل الحول، وذلك في ذي الحجة، على رأس عشرة أشهر من الهجرة)، فهذه النصوص الثلاثة تحدد وفاته بالسنة الأولى من الهجرة النبوية، أي سنة ٦٢٢م، وتؤكد على جاهليته المستفادة من كلام أبي الفرج والجاحظ، أما ما ذكره ابن هشام في السيرة: (ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زُرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون، إلاّ ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعرا لهم، قائد يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأُحد والخندق)، وقول ابن حزم: (لو كان سيد قومه، فتأخر إسلامه إلى أن مضى يوم الخندق)، فإن الخلط قام لديهما - فيما يبدو - بينه وبين ابنه عقبة، فهو الذي أسلم وأكرمه الله بالشهادة في القادسية كما مرّ فهو وإن لم يحدد المؤرخون سنة إسلامه، فإنه لابد أن يكون سيدا مطاعا في قومه، بحكم أنه ابن سيدهم وقائدهم، يرث من طباع أبيه، ويستمد من مكانته فيهم. أما توقف أوس الله عن الإسلام قبل الهجرة وعدم مسارعتهم إلى الدخول فيه كما فعلت البطون الأخرى، فلا غرابة أن يكون من أبي قيس، وهو الذي رغب بنفسه عن الإسلام حتى بعد الهجرة لمجرد إشارة واجهه بها ابن أبيّ، ولا غرابة بعد هذا أن يتأخر إسلام ابنه عقبة إلى ما بعد الخندق، فالولد في الغالب صنو أبيه.

هذا وقد نبّه الدكتور حسن باجودة إلى خلط كتّاب التاريخ والتراجم بين أبي قيس بن الأسلت وشاعر مدنّي آخر معاصر له، يشترك معه في الكنية، من بني النجار الخزرجيين، وهو أبو قيس صرِمْة بن أبي أنس، فقال أنت تجد المعلومات الإسلامية التي تعطى عن ابن أبي أنس من أنه حينما جاء الإسلام اعتنقه، وكان واحد من الذين دخل الإيمان في قلوبهم.. إلى آخر ذلك، هي نفسها التي تعطى عن ابن الأسلت، بحيث تكاد تتحول شخصية ابن الأسلت مطابقة لابن أبي أنس، والشيء الذي لا مراء فيه، هو أن هذه المعلومات الإسلامية تعتبر امتدادا طبيعيا وتطورا للمعلومات التي تعطى عن ابن أبي أنس في الجاهلية، من أنه

قبل الإسلام، وقبل قدوم النبي ﷺ المدينة، كان يتألَه ويدّعي الحنيفة، ويلاحظ أن هذه المعلومات نفسها ينال ابن الأسلت شيء كبير منها، وهي تسير جنبا إلى جنب مع المعلومات الصحيحة عنه، وكل ذلك يجعلنا ننتهي إلى نتيجة حتمية، هي: أن لبساً قد حدث في أذهان العلماء بسبب المعاصرة واتفاق الكنية بين أبي قيس: صيفي بن الأسلت، وأبي قيس ضرمة بن أبي أنس). وممن وقع في هذا الخلط ابن حجر في الإصابة، وابن عساكر في التاريخ الكبير.

وإذا كنا نحسب أننا بما تقدم استطعنا التغلب على صعوبة تحديد سنة وفاته، فإن الصعوبة التي ليس لها حل سوى التخمين تكمن فيما يتصل بتحديد سنة ولادته، والعمر الذي مات عليه.

في كتابتنا عن الشاعر المدني أُحيحة بن الجُلاح رجعنا في تحديد سنِّه من خلال بيت له قاله في مُذْهبته أنه خاض حرب (كعب بن عمرو) وهو كبير السنّ، ونضيف هنا أننا نخمِّن أن يكون سنّه إذَّاك لا يزيد على الستين، فهي سنٌّ يمكن معها الجلد على القتال، فقد كان الرسول ﷺ وكثير من صحابته يخرجون إلى القتال وهم في مثل هذه السنّ، أما بعد ذلك فإن الحرب تصبح ضربا من التعرض للهلاك المحقق، وبخاصة في حروب تلك الأزمان، التي تعتمد على الضرب والطعن، والكر والفر، ومعنى هذا أن حرب (كعب بن عمرو) وقعت حوالي ٥٢٥م، ولا بد أن تكون أعقبتها بعد ذلك فترة سلام طويلة، ولابد أن تكون أعقبتها بعد ذلك فترة سلام طويلة، لأننا إذا رجعنا مع البكري أن يوم السرارة من أيامهم لم يكن يوما مستقلا، وإنما كان ضمن أيام (حرب حاطب)، فإن الحرب الثالثة بينهم تكون هي (حرب الحصين بن الأسلت)، والحصين هو أخ لأبي قيس، قتله جماعة من الخزرج، فقامت بسببه حرب بين الحين، قادها أبو قيس، ونحن نفترض أن سنّه إذاك لا تقل عن الثلاثين، فإذا عرفنا بعد ذلك أن القيادة عُرضت عليه يوم بُعاث (٦١٧م)، واعتذر عنها ربما لكبر سنّه، قدَّرنا أن يكون من مواليد سنة ٥٧٢م، ويكون عمره يوم حاطب الذي تولى فيه القيادة أيضاً حوالي إثنين وستين سنة، فهو على هذا سابق لجيل حسان المولود سنة ٥٦٣م، وابن الخطيم وابن رواحة، فقد عاش في آخر أيام أحيحة رئيس قومه السابق الذي قلنا إنه توفي سنة ٥٦١م، وقد يكون رآه واستمع إلى شعره.

والذي أحب أن أضيفه هو أن هذه الفترة في الواقع من تاريخ يثرب، محاطة بكثير من الغموض، لأنها في الغالب غير مطروقة للكتّاب، كما أن الذين كتبوا عنها اهتموا بالأحداث وسرد الأخبار، دونما إحالة على مرجع دقيق، ودون أي اهتمام بالتحديدات يبقى قابلا للمناقشة والتعديل ، لأنه قائم على الاجتهاد والترجيح بناء على بعض المعلومات التي وصلتنا عنهم، ولكن ذلك في اعتقادي لا يغض من شأنه ولا يحط من قيمته، ما دام يساعدنا على تصور أفضل لحياة هؤلاء الذين نكتب عنهم، ويُسهم في إجلاء غوامض تلك الفترة، وتوضيح بعض جوانبها المعتمة.

شاعريته

كان الدكتور باجودة – فيما أعلم – أول من قام بدراسة جادة لشعر هذا ضمن اهتماماته بشعراء المدينة، وقد أسفرت جهوده المباركة عن جمع شعر ابن الأسلت في ديوان صغير، طبعته دار التراث بمصر عام ١٣٧٣هـ ثم كرر طبعه نادي الطائف الأدبي قريبا، ولم يقتصر عمله على مجرد الجمع، بل قام بتحقيق الشعر المنسوب له، والبحث عن مدى صحة تلك النسبة، وأحب أن أسجل هنا أنني استفدت في كتابة هذه الترجمة مما كتبه، واشتركت معه في كثير من الآراء، وليس من غرابة أن يجتمع الناس على حق، وقد خلص باجودة في تحقيقه إلى أن ما ثبت عنده من شعر ابن الأسلت لا يتجاوز ثمانية وستين بيتا، من بين مائة وتسعة وأربعين بيتا، كلها منسوبة إليه.

ونحن الآن لسنا بصدد الدخول مع الدكتور الفاضل في مناقشة الأسس التي أقام عليها أحكامه في النفي والإثبات، فذلك ما لا يتسع له صدر دراسة كهذه تهتم بالعموميات أكثر مما تهتم بالتفاصيل والجزئيات، فإن وقع شيء من ذلك فبالقدر اليسير الذي يؤكد حقيقة أو يثبت مزية.

ولا شك أن أكثر شعر ابن الأسلت ضاع فيما من تراث، نعم قد يكون ابن الأسلت من المقلين، ولكن مثله لا ينتظر منه هذا الإقلال، فهو رجل محتك بالحياة اليثربية أشد الاحتكاك، يعيش أحاسيسها ويحيا نبضات قلبها في الأسى والفرح والجدب والرخاء، يقود قومه في المعارك، ويكون لسانهم في الأزمات، وأنّى لبطل صنديد يملك الشاعرية الدافقة أن يؤثر الصمت، فلا يتغنى بالبطولة ولا يشيد بالمواقف والمعارك كما فعل حسان وابن الخطيم..؟ وفي شعره الصحيح النسبة مقطوعات بينة الاقتطاع، تدل أبياتها الباقية على أن لها لواحق وسوابق، وذلك كقوله:

ثم ارعويتُ وقد طال الوقوف بنا
فيها، فصرتُ إلى وجناءَ شملال

فهذا البيت مطلع مقطوعة من أربعة أبيات، ووجود حرف العطف (ثمّ) في مطلعه دليل على أن الكلام معطوف على كلام سابق، فكأنما الأبيات جزء من مطلع قصيدة ذهب سائرها وبداية المطلع، ولم يبق منها غير هذا الجزء من مقدمتها الطللية.

وقد كان ابن الأسلت ابن عصره، ومدح وفخر وهجا، وكان ابن بيئته اليثربية، متأثرا بوديانها ونخيلها وحرارها، واصفا بعض ما كان فيها من معارك وحروب، مشتركا في فن النقائض الذي هو سمة من سماتها المميزة في العصر الجاهلي.

يقول أبو قيس في ظل حرب بُعاث وقومه الأوس في نشوة الانتصار الساحق على الخزرج، قبل الهجرة النبوية بخمس سنوات:

ألا من مبلغٌ حسان عني
أطبّ كان داؤك أم جنون

ومــن المؤســف أنه لم يبق من هذه القصيدة غير هذا المطلع، وقوله:

وأحــرزنا المغــانم واســتبحنا
حــمى الأعــداء، (والله) المعيــن
بغيــر خلابــة، وبغيــر مكــر
مجاهــرةً، ولــم يخــبأْ كميــن

وقوله:

عــلى أن قــد فُجعتُ بذي حفاظٍ
فعــاودني له حــزن رصــين
فإمَّــا تقتــلوه فــإن عَمْــرا
أعــضَّ برأســه عضــبُ ســنين

وهــنالك بيت آخر يجوز أن يكون من أبيــات هــذه القصيدة، فهو مشترك معها في القافيــة والوزن، وإذا ابتعد مضمونه ظاهريا عما تقدم في الأبيات السابقة فلعل في الأجزاء المحذوفة من القصيدة ما يوطئ له ويسلكه في عدادها. يقول:

غــراس كالفــتائن مُعْرَضــاتٌ
عــلى آبارهــا أبــدا عُطــون

فيــرد حسان بن ثابت يهجو أبا قيس (ديوان حسان٢٥٥)، وينقض قصيدته ويذكره بأيام كانت لقومه الخزرج على الأوس، فيقول:

ألا أبــلغُ أبــا قيــس رســولا
إذا ألــقى لهــا ســمعا تُــبين
نســيت الجســر يــوم أبي عقيلٍ
وعــندك مــن وقائعــنا يقيــن
فلســتُ لحاصــين إن لم تزركم
خــلال الــدور مشــعلةُ طحــون
يديــن لهــا العزيــز إذا رآهــا
ويهــرب مــن مخافــتها القطين

من قصيدة ذات تسعة عشر بيتا.

ومــارس ابن الأسلت الشعر الغزلي، فكان فيه رقيق العاطفة دقيق الوصف، مشرق الصــورة جميل الألوان، وقد ذكر أبو الفرج أن بعضهم كان يفضله في قوله:

ويكــرمها جاراتهــا فيــزرْنها
وتعــتلُّ عــن إتيــانهن فــتُعذَرُ
وليــس لهــا أن تستهين بجارةٍ
ولكــنها مــنهن تحيــا وتَخْفَــرُ

عن غيره من الشعراء في هذا الباب، كالأعشى وحاتم وذي الرمة.

وكــانت لابن الأسلت علاقة شخصية حميمــة مــع أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أميــة، مــن رجالات قريش ووجهائها، ولذلك نجده يمدحه بقصيدة منها:

وكــان أبــو أحيحــة قــد علمتمْ
بمكــة غيــر مهتضــمٍ ذميــم
إذا شــدَّ العصــابة ذات يــوم
وقــام إلى المجــالس والخصــوم

فقــد حرمتُ على من كان يمشي

بمكـــة غيـــر مُدّخــلٍ ســـقيم

ومــن غــريب المصــادفات أن يجمع القدر بين ابن الأسلت وأبي أحيحة في الممات كمــا جمع بين قلبيهما في الحياة، فقد ماتا في عام واحد تقريبا.

وشعر ابن الأسلت يمثل في خصائصه كــثيرا مــن الخصــائص الفنية العامة للشعر اليــثربي، الــتي يتجــلى في مقدمتها البساطة والدقة في تخير الألفاظ، كقوله:

ليــس قطــا مــثل قُطيّ ولا الــ

ــمــرْعيّ فــي الأقــوام كالراعي

فهــو تعــبير بسيط منتزع من البيئة، فالقطــاه – وهو يعني بها نفسه – أعظم شأنا وأهدى سبيلا من القُطيّ، وهو يعني بها غيره ممــن هــم أقل شأنا، وهذا التعبير بما فيه من بســاطة نفاذة جرى مجرى المثل، في التعبير عــن خطــأ القيــاس، قــال الميدانــي:(وقال الأصــمعي: يضــرب في خطأ القياس)، ويقول بــاجودة حول هذا البيت: (وهو بيت يدل على بساطة قائله، فنحن إزاء اتجاهين مختلفين في التعــبير، فهو قد بدأ بالقطا الأكبر حجما، وتنى بالأصــغر، بيــنما حــدث العكس في المرعيّ والــراعي، هــذا التغير مسئول عنه القافية). وكــأن بــاجودة يدافــع عن الشاعر من أجل ضرورة حملته عليها القافية، ونحن لا ننكر أن لــلقافية ســلطانه على الشعر، ولكننا نرى أن هــذه الســلطة تكاد تزول أمام بعض الشعراء، ونزعم أن هذه المغايرة في التعبير تعمدها ابن الأســلت أيضــا وقصد إليها، ليسهم بذلك في تقرير المعنى الذي يريده في الأذهان، لما فيها مــن قدرة على تنبيه السامع وإحداث الموازنة بين القطا والقطيّ، والمرعيّ والراعي، فيتجسد بذلــك المعــنى فــي نفس المتلقي، وهذا ما لا يكون لو صحت المشاكلة اللفظية، ولعله شبيه بقولــه تعالى: ((وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور))، فــإن ارتيــاح الــنفس يكون للإبصار والظل، والــنفور يكون من العمى والحرارة، ولكن هذا الترتيب قد يفوّت معنى قصد إليه القرآن.

وتظهــر الدقة أيضاً في اختياره كلمة (أسماعي) في قوله:

قــالت – ولم تقصد لقيلِ الخنا–

مهــلا، فقــد أبــلغتَ أســماعي

يقــول باجودة: (فالمعروف أن للمرء ســمعا واحــدا، والشــاعر كي يفهمنا انزعاج زوجــته مــن كــل طرقة وصلت إلى سمعها، يــأتي بصــيغة الجمــع دليــلا على أن الإيذاء كــان بعــدد الطَّــرقات، وكأن لكل طرقة سمعا يؤذي).

ويســتخدم ابــن الأســلت المحسنات البــديعية مــن جناس والتفات ورد العجز على

الصدر، بحذق ظاهر يدل على حاسة فنية راقية، كقوله:

يحمي ذماركمُ وبعـ
ـضُ القوم لا يحمي ذماره

حيث رد فيه العجز على الصدر:

كما يظهر الضحى، صفر الحشا، منتهى المنى
قَطوفُ الخطى، تمشي الهوينى فتَبْهرُ

ونكاد نجزم من ناحية أخرى بولع ابن الأسلت بصيغ المبالغة، فهو كثير الاستعمال لها في شعره، ومن ذلك: (رقود الضحى، أمون غير مظلاع، مهنَّد كالملح، قطاع، خدّاع، ومجنأ أسمر قرّاع، جلْد غير مجزاع، هلوع، شملال، عمّال)، فابن الأسلت برغم قلة ما وصلنا من شعره، هو شاعر قدير له أدواته الفنية التي يحسن استعمالها والتصرف فيها والإبداع من خلالها وإقناعك بشاعريته، فإذا كان هذا مستوى قليلة، فكيف نحن بكثيرة الذي ضاع؟ وقد قال عنه ابن عساكر: (وكان يعْدَل بقيس بن الخطيم في الشعر والشجاعة)

ملامح شخصيته

أول ما يبدهك من هذا الشاعر شعوره الكامل بمسئوليته تجاه عشيرته وتولِّيه شؤونهم، لا يفرق في ذلك بين كبير وصغير وقريب وأقرب:

أسعى على كل بني مالك
كل امريء في شأنه ساع

وقد اختاره قومه لقيادتهم في الحروب لما آنسوه فيه من جلد وقوة ورجاحة في الرأي، فقادهم في حرب الحصين بن الأسلت للثأر من قاتلي أخيه الذي حملت هذه الحرب اسمه، كما قادهم يوم الربيع، وفي حرب حاطب بأيامها الطوال، ولكونه لم يكن شخصا عاديا في الحروب كحسان، ولم يقتصر أمره فيها على البطولة وحسن البلاء كابن الخطيم، بل كان يحتل مكان القيادة والمسؤولية فيها، نراه يفضل في أغلب الأحيان في شعره استعمال ضمير المتكلم بدلا من ضمير المُتكلمين، وذلك كما في البيت السابق وما بعده:

أعددتُ للأعداء موضونةً
فضفاضةً كالنِّهْي بالقاع
أحفزها عني بذي رونقٍ
مهنَّدٍ كالملح قَطَّاع

وهو رجل صريح صادق مع نفسه، يلقي كلامه إليك مباشر، ولا يعمد إلى المبالغة كما كان يفعل حسان في بعض أشعاره، بل يعترف في شعره رغم بطولته وشجاعته

بالهزيمة إن وقعت له فالحرب في عرفه سجال، ولا يمكن أن تسلب الهزيمةُ الإنسان فضائله وتذهب بمواقفه الأخرى، فإن أفاضل الناس وشجعانهم قد ينهزمون تحت تأثير أي ظروف، ولكنهم لن يفقدوا بذلك فضلهم ونبلهم وأصالة نفوسهم، وأمامهم من أعمال المجد والبناء مجالات ومجالات، ولذلك نرى ابن الأسلت حين يعتذر عن هزيمته في الجولة الأخيرة في حرب الحصين بن الأسلت لمّا لامه أخوه (وحْوَح) على ذلك يقول:

أبلغ أبا حصن وبعْـ
ـضُ القول عندي ذو كباره
أن ابن أم المرء ليـ
ـس من الحديد ولا الحجاره
ماذا عليكم أن يكو
ن، لكم بها رَحْلاً عماره
يحمي ذماركمُ وبعـ
ـضُ القوم لا يحمي ذماره
يبني لكم خيراً وبنْـ
ـيان الكريم له أثاره

وهو لسلامة تفكيره وتعقله وغلبة الحكمة عليه يضجر من الحرب ويعرف عواقبها فلا يتهور فيها ولا يدعو إليها، ولا يدخلها إلا مجبرا مدفوعا إليها بحكم الأحداث، ولعل في هذا يكمن سرّ بعض ما وقع له من هزائم، فهو لا يوغل في قتل أعدائه، ولا يميل إلى المبالغة في سفك الدماء، بل قد يكتفي بالتأديب وأخذ الثأر والإشعار بالغلبة والقوة، وهو سلوك بالطبع لا يروق لبعض المحاربين الذين قد يؤثرون سحق الأعداء، حتى لا يبقوا فيها ديَّارا.. خرج حضير الكتائب قائد الأوس يوم بُعاث وأبو عمرو الراهب إلى أبي قيس بن الأسلت، وهما في غمرة الانتصار على الخزرج، ونار الحقد تتوقد في عيونهما، فقال له حضير: يا أبا قيس... إن رأيت أن نأتي الخزرج قصرا قصرا، ودار دارا، نقتل ونهدم، حتى لا نبقي منهم أحدا.. فقال أبو قيس انطلاقا من حلمه وكمال عقله: والله لا نفعل ذلك. فهو يكفّ عند المقدرة ولا تطغى عليه روح الانتقام، وهذا ما فعله مرة أخرى حين أُسر مخلّد بن الصامت ثم أطلق سراحه وعفا عنه، وضمّن ذلك شعره في معرض الفخر بنفسه فقال:

أسرتُ مخلَّدا فعفوت عنه
وعند الله صالح ما أتيت

وفي الواقع إن تصرف ابن الأسلت هو التصرف النبيل وإن خالف طبيعة الجاهليين وجافى نفسياتهم، إذ يكفي المقتدر الكبير النفس أن يصل إلى إقناع خصمه بالتفوق والقدرة عليه، فإذا حقق ذلك عفا عفوا القادرين، وهذا ما كان يفعله ابن الأسلت، وكان مع ذلك رجلا حازما يكره الحمق والاسترخاء في الرأي، ويمقت المداهنة

والمصانعة، ويؤثر المصالحة والاستقامة المصحوبة بالقوة والاستعداد للتضحية في كل حين:

الحزمُ والقوةُ خير من الـ
إدّهان والفكَّةِ والهاع

وكان ابن الأسلت ذا قلب رقيق يهتز للوجه الناعم والحشا المضيم والخطو الهيّن المنغّم، والصوت الرخيم، والمنطق العذب واللسان الكريم، فيتغزل ويغني بالجمال:

رَقودُ الضحى، صفر الحشا، منتهى المنَى
قَطوفُ الخُطى، تمشي الهوينى فتبهرُ
خفيضةُ أعلى الصوت ليست بِسَلْفع
ولا نَمّةٍ خرَّاجةُ حين تظهر

وهو رجل متواضع يعاشر قومه بالحسنى، ولا يتعالى عليهم لرئاسته فيهم، يبذل لهم من عطائه، ويقبل دعوة من دعاه منهم، ويحضر ولائمهم، ويزورهم في أفراحهم وأتراحهم:

هل أبذل المال- على حبِّه-
فيهم وآتي دعوة الداعي

وقد يذكرنا قوله: (على حبه) بقول تعالى: ((ويطعمون الطعام على حبه مسكينا يتيما وأسيرا))، وبقوله تعالى أيضاً: ((وآتى المال على حبه))، ويشعرنا بما أراده من المبالغة في الفخر بتمام كرمه، وقد يكون أراد إذا دعي إلى حرب أو حمالة أو غير ذلك من دواعي الشرف لم يتخلف عنه.

ولكن ما قاله عن كرمه لم يكن كذباً أو حديثاً مصطنعاً، بل كان ابن الأسلت في واقعه رجلاً كريماً معطاء، يرعى الفقراء، ويمد يد المساعدة إليهم، ولهذا نراه يحث ولده قيساً بمواصلتهم فيقول:

أقيسُ إن هلكتُ وأنتَ حيٌّ
فلا تعدَمْ مواصلة الفقيرِ

ويقول:

بُنَيَّ متى هلكتُ وأنت حيٌّ
فلا تحرمْ فواضلك العديما

وهو في الوقت نفسه يعرف قيمة المال، ولا يصل بكرمه إلى الإسراف والتبذير، ولذلك صرَّح بحبه كما مرَّ، وكقوله يوصي ولده:

ومالك فاصطنعه، وأصلحنه
تجدْ فيه الفواضلَ والنعيما

هذه الصفات التي ذكرناها لابن الأسلت وغيرها من الصفات الكريمة العالية جعلته يحتل مكان الصدارة في قومه وينال الرئاسة فيهم، يستشيرونه في مهماتهم، ويصدرون عن رأيه، وهذا ما حدا بجورجي

زيدان أن يسلكه في الشعراء الأمراء الذين عدَّ منهم بالإضافة إلى ابن الأسلت: أمرأ القيس، وعمرو بن كلثوم، والأفوه الأودي المذحجي والمهلهل بن ربيعة التغلبي وعبد يغوث من بني الحارث بن كعب وزهير بن جناب الكلبي القضاعي وعامر بن الطفيل الغنوي العامري ابن عم لبيد الشاعر، وأغلبهم معاصر لابن الأسلت، ولعله اعتمد في وصفه بالإمارة على قول ابن الخطيم:

ولما نزلنا الحرث قال أميرنا:

حرامٌ علينا الخمر ما لم نحارب

فإن ابن الخطيم كان يقصد فعلاً ابن الأسلت، ولكنه كان يقصد الإمارة الحربية، ولعل ما يؤيكد مكانة ابن الأسلت في قومه ذكره في أشعارهم ومفاخرتهم به كما فعل ابن الخطيم هنا، وكما فعل الشاعر الأوسي الآخر سويد بن الصامت الملقب بالكامل، في مناقضته للشاعر الخزرجي صخر بن سليمان البياض، الذي ذكر ابن الأسلت أيضاً، يقول سويد:

ألا أبلغا عني صخيرا رسالةً

فقد ذقتَ حرب الأوس فيه ابن الأسلت

قتلنا سرايكم بقتلى سراتنا

وليس الذي ينجو إليكم بمفلت

بقي أن نقول إن من أهم أشعاره عينيته التي عدت في المذهبات، وقد قالها في حرب حاطب بن هيشة المُعاوي، تلك الحرب التي وقعت بين قومه الأوس وبين أعدائهم الخزرج، والتي منها:

قالت – ولم تقصد لقيل الخنا –

مهلا، فقد أبلغتَ أسماعي

أنكرته حين توسَّمته

والحرب غولٌ ذات أوجاع

من يذق الحرب يجدْ طعمها

مُرّاً، وتحبسْه بجعجاع

قد حصّت البيضة رأسي، فما

أَطعمُ غَمْضاً غير تهجاع

أسعى عل جلّ بني مالك

كل امريء في شأنه ساع

أعددت للأعداء موضونةً

فضفاضةً كالنّهي بالقاع

وبعد: فقد نكون في الصفحات الماضية استطعنا أن نقدم للقارئ الكريم صورة واضحة لشاعر بارز من شعراء المدينة المنورة في العصر الجاهلي، متميز في مكانته الاجتماعية والسياسية والحربية والشعرية بين قومه، وكل البيئات المجاورة، فوكدُنا وغايتنا القصوى إثبات مكانة المدينة الشعرية بين البيئات الشاعرة.




ساعة الموتِ شعراً

شعر: د. غازي عبد الرحمن القصيبي

وهـا هـي ذي ساعةُ الموتِ شعراً..
وغيثاً حزيناً..
يحاول أن يتجلّد.. يرفض
أن يتقمَّص شكلَ الدموعْ

* * *

وأنتِ! بنفسجة العُمرِ المتطاير
فوق فيافي التشرد.. عبر قفار
الكهولة – تمشين كالنصل..
تحت الجفون.. وبين الضلوعْ

* * *

وأجملُ أنتِ، برغم السهاد
الذي في الملامح، من كل أنثى
مراراً.. مراراً..
وأروعُ من كل حسنٍ يروعْ

* * *

وواعجباً! كيف نحن اجتمعنا؟!
وساعتها انفجر الكون عطراً..
حريراً.. ورقصاً..
ولوعاً يفوقُ الولوعْ

* * *







وألقيــــــت نفســـــــيَ بيـــــــن يديـــــك..
صـــــــبياً.. صــــــــغيراً.. بريـــــــئاً..
تحــــــــرَّر مـــــــن كدمـــــات الصـــــمود..
وجــرح الخضــوعْ

*　　　　*　　　　*

وســـــــاءلتُ نفســـــي. كيـــــف أضــــمُّك؟!
ما لي أنا والســعادة؟!
ودَّعــــــــتها يـــــــــومَ آمـــــــــنتُ
أن الحيـــــــــــاة أوامٌ وجـــــــــــوعْ

*　　　　*　　　　*

وأشــــــرق وجهُـــــــك.. أبصـــــرته ألـــــف
وجـــــهٍ ووجـــــهٍ.. وفـــــي كـــــل وجــــه
مــروجٌ وكــرْمٌ..
وحلــمٌ يضــوعْ

*　　　　*　　　　*

وعشــــــتُ الســــــعادةَ حـــــتى الــــثمالة..
أحسســــــــتُ بالصـــــخر يرشـــــحُ بالمـــــاء..
بـــــالعودِ يخضـــــرّ.. بالقـــــلبِ ينـــــبِض
بعد سنين الهجوعْ

*　　　　*　　　　*

تـــــناثرتُ فـــــي ناظـــــريكِ قصـــــائدَ..
عمّـــــرتُ فـــــي ناظـــــريكِ مدائـــــنَ..
أبحـــــرتُ فـــــي ناظـــــريكِ ســـــفائنَ..
لا تســـــتريح عـــــليها القـــــلوعْ

*　　　　*　　　　*







وأنتِ! بأعوامكِ العشر والعشر..
كيف اختزلتِ علوم جميع النساءِ..
كما تخزن الشمسُ
علم الطلوعْ؟

*　　　*　　　*

كأنكِ عبر السنين.. تعلمت
من كل ليلى الدَّلالَ.. ومن كلِّ
فينوس كيف تصير الشفاهُ
كنار الشموعْ

*　　　*　　　*

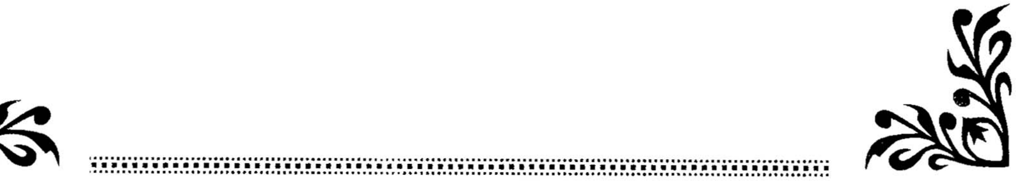
وها هي ذي ساعة الموت شعراً..
وغيثاً حزيناً..
يحاول أن يتجلَّد.. يرفض
أن يتقمّص شكل الدموعْ

*　　　*　　　*

أأصمتُ أم أتكلمُ؟! صمتي ثقيلٌ
ومرٌّ.. كلامي ثقيلٌ ومرٌّ..
ولليوم طعمٌ ثقيلٌ ومرٌّ..
كطعم الخنوعْ

*　　　*　　　*

إذن أنهض الآن، أمشي إلى الباب،
أفتحه بهدوءٍ وأرحلُ.. لا تجرأين
.. ولا أنا.. أن نتساءل
كيف وأين يكون الرجوعْ؟



لقد اهتم العرب في رصدهم لكثير من العلوم، بشمولية الحديث عن الأيام والشهور، فربطها المؤرخون كابن كثير والطبري، وابن الأثير ببدء الخلق، وأيهما خلق أولاً: الليل أم النهار؟؟

وأما النويري في نهاية الأرب، فقد تعرض في حديثه للسماء والآثار، والأرض والآثار السفلية وجعل القسم الثالث، من الفن الأول لليالي والأيام والشهور والأعوام والفصول.

والقلقشندي في صبح الأعشى، قد جعل حديثه مطوّلاً عن معرفة الأزمنة والأوقات، حتى استغرق منه ما يزيد على مائة صفحة.

وحتى لا نتوسع مع كتب الفلك، في الأيام والشهور، ومع ما قاله المؤرخون من الناحية التاريخية، وكذا الأدباء بالقصائد والمقطعات عن الأيام والشهور. والمشهور منها وما قيل فيها من وصف أو غيره، ولا غيرهم من أصحاب التخصصات والوقائع. أو الفلك وعلوم الهيئة، فسوف نقتصر على الأيام والشهور وما قيل فيها.

فقد ذكر النويري في الليالي والأيام ما يدل على أن الظلمة خلقت قبل النور، حيث استدل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((خلق الله الخلق في ظلمة - وروي في عماء - ثم رشّ عليهم من نوره)) كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن الليل، أكان قبل أو النهار؟ قال: "أرأيتم حيث كانت السموات والأرض رتقاً، هل كان بينهما إلاّ ظلمة، ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

والذي ورد في القرآن الكريم من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور، بدأ الله عز وجل فيه بذر الليل قبل النهار، وبالظلمات [illegible]

النور، ويروى أن الله عز وجل، لما خلق السماء والأرض، وقع ظل السماء على الأرض، فأظلمت فجعل الشمس ضياء والقمر نوراً. ثم خلق الزمان وقسمه قسمين: ليلاً ونهاراً. فجعل حصة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس. فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة.

فلما أراد سبحانه خلق النوع الإنساني، وعلم أنه لا غنى له عن الحركة للمعاش نهاراً، والسكون للراحة ليلاً، أمر جبريل فأمرَّ جناحه على القمر فمحا نوره، فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلماً، والنهار مبصراً، وهذا ما يأخذه علماء التفسير من دلالة الآية الكريمة: ((وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة..)) [الإسراء ١٢]

وقال القلقشندي: اختلف الناس في مدلول اليوم على مذهبين: الأول وهو مذهب أهل الهيئة: أن اليوم عبارة عن زمان جامع لليل والنهار، مدته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة الأولى، إلى عودها إلى ذلك النصف بعينه، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلك نصف النهار. ومنهم من يقدم الليل، فيفتتح اليوم بغروب الشمس، ويختم بغروبها من اليوم القابل، وعلى ذلك عمل المسلمون وأهل الكتاب، وهو مذهب العرب، لأن شهورهم مبنية على سير القمر، وأوائلها مقدرة برؤية الهلال. ومنهم من يقدم النهار على الليل، فيفتتح اليوم بطلوع الشمس، ويختم بطلوعها من اليوم القابل وهو مذهب الروم والفرس.

المذهب الثاني: مذهب الفقهاء: أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل، حتى أن بعضهم قال: لو قال إنسان لزوجته: أنت طالق يوم يقدم فلان، فقدم ليلاً لم يقع الطلاق.. والقائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين: طبيعي وشرعي.

أما الطبيعي فالليل من لَدُنْ غروب الشمس واستتارها بحديَّة الأرض، إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق إلى غيبوبة نصفها في الأفق في المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك.

أما الشرعي: فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بالخيط الأبيض في قوله تعالى: ((.. حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر..)) [البقرة ١٨٧] والنهار من الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وبذلك تتعلَّق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرها.

والليل: قد قسمه العرب إلى اثنتي عشرة ساعة، لها أسماء وضعوها وهي الشاهد ثم الغسق، ثم العتمة ثم الفحمة، ثم الموهِنُ، ثم القطْعُ، ثم الجوَشُ، ثم العبكةُ، ثم التباشير، ثم الفجر الأول، ثم الفجر الثاني، ثم المعترِض.

وحكى الثعالبي في فقه اللغة عن حمزة الأصبهاني قال - وعليه عهدته -: أسماء هذه الساعات هي: الجهمة، والشَّفق، والغَسَقُ، والعتمة، والسُّدفةُ والزلّة، والزُّلْفَةُ والهُبْرة، والسَّحَرُ، والفجر، والصبح، والصباح.

وقد عبَّر الله جلت قدرته بالليالي عن الأيام كقوله تعالى في سورة الفجر: ((والفجر وليال عشر)) وقال سبحانه في قصة موسى: ((وواعدنا موسى ثلاثين ليلة..)) كما أوضح ذلك المفسرون.

والنهار طبيعي وشرعي: فالطبيعي زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه في المغرب، والشرعي: ما بين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

وفي الشرع أيضاً قُسِّم الفجر إلى فجرين: فجر كاذب وهو بياض مستطيل، وفجر صادق وهو بياض مستطير.

ومثلما وضعت العرب أسماء لساعات الليل، فقد وضعت لساعات النهار أسماء أيضاً وهي: اثنتا عشرة ساعة كالليل: الذّرور، ثم البزوغ، ثم الضُّحى، ثم الغزالة، ثم الهاجرة ثم الزوال، ثم الدُّلوك، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم الصبوب، ثم الحَرور، ثم الغروب.

وقيل أيضاً إن أسماء هذه الساعات: البكور ثم الشروق، ثم الإشراق، ثم الرَّأد، ثم الضُحى، ثم المتوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيل، ثم العصر، ثم الطَّفَل، ثم العشيّ، ثم الغروب.

كما حكى الثعالبي في فقه اللغة عن حمزة الأصبهاني أيضاً وقال – وعليه عهدتها – أن أسماء ساعات النهار هي: الشروق، ثم البكور، ثم الغُدْوة، ثم الضحى، ثم الهاجرة، ثم الظهيرة، ثم الرواح، ثم العصر، ثم القصر، ثم الأصيل، ثم العشي، ثم الغروب.

وقد توسع القلقشندي في الحديث عن اختلاف الليل والنهار، بالزيادة والنقصان والاستواء باختلاف الأمكنة موضحاً العلة، ومع حركة الشمس السريعة والبطيئة. حسب فصول السنة، وأشهرها الشمسية الأثني عشر. وهي التي تسمى البروج: الحمل الموافق السابع عشر من برمهات من شهور القبط، ويوافق الحادي والعشرين من آذار في شهر السريان، وهو مارس من شهور الروم، والرابع والعشرين من حردادماه من شهور الفرس ثم يليه الحمل،ثم الجوزاء، ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة: شماليًّا صاعداً لصعودها في جهة الشمال.

ثم يأتي الرابع وهو السرطان حيث تكر الشمس راجعة إلى جهة الجنوب ويسمى المنقلب الصيفي، وذلك في العشرين من بؤونه من شهور القبط، ويوافق حزيران من شهور السريان، ويونيه من شهور الروم، آخر كل منها أي عندما يبقى خمسة أيام.. حيث يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان. ثم الخامس وهو برج الأسد، ثم السادس وهو برج السنبلة ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شماليًّا هابطاً لهبوطها في الجهة الشمالية.

ثم السابع وهو برج الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، ثم الثامن وهو برج العقرب ثم التاسع برج القوس وفيه أقصر يوم في السنة، وأطول ليلة في السنة وذلك غاية هبوطها في الجهة الجنوبية، ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبياً هابطاً، لهبوطها في الجهة الجنوبية.

ثم العاشر وهو برج الجدي ثم الحادي عشر وهو الدلو، ثم الثاني عشر وهو برج الحوت، ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبياً صاعداً، لصعودها في الجهة الجنوبية.. وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

وفي بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار، جعل علماء الميقات، والمهتمون بتتبع النجوم له نجوماً تدل عليها بالطلوع والغروب والتوسط، وهي منازل القمر وعدتها ثمانٍ وعشرون منزلة، لكل منزل ثلاثة عشر يوماً، وهذه المنازل هي: الشّركان، والبطين

والثريا، والدَّبَران، والهقعة والهنعة، والذِّراع، والنـثرة، والطَّـرْف، والجـبهة، والخـرتان، والصَّـرْفة، والعَـوَّاء، والسـماك، والغَفْـر، والزبانان، والإكليل والقلب، والشولة، والنعائم، والبـلدة، وسـعد الذابـح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطن الحوت.

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قربت مـن كوكـب من الكواكب الثابتة أو المتحركة، سـترته أو أخفـته عـن العيون، فصار يظهر نهاراً ويختفي ليلاً، ويكون خفاؤه غيبة له، ولا يـزال كذلـك خافياً على أن تبتعد الشمس بعداً يمكـن أن يظهـر مع للأبصار، وهو عند أول طلوع الفجر، فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً، حيـنئذ فلا يغلب نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً.

أمـا تسـمية الأيـام فقيل فيها ثلاث روايات:

الـرواية الأولى: مـا نطقت به العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاسـتعمال إلى الآن وهـو: الأحد، والإثنين، والـثلاثاء والأربعـاء والخميـس والجمعـة والسـبت. والأصـل في ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "إن الله عز وجل خلق يوماً واحـداً فسـمَّاه الأحـد، ثـم خلق ثانياً فسمَّاه الإثـنين، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعـاً فسمَّاه الأربعاء، ثم خلق خامساً فسماه الخميس" ولم يذكر في هذه الرواية الجمعة ولا السـبت، وقـد ذكرها سبحانه في كتابه العزيز فقـال تعـالى: ((يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصـلاة من يوم الجمعة..)) [الجمعة ٩] وقال عـزَّ وجـل: ((إذا تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا..)) [الأعراف ١٦٣]

وقـد اختلف في سبب تسمية الجمعة فقال النحاس: "لاجتماع الخلق فيه، وهذا ظاهر فـي أن الاسـم كان بها قديماً، وقيل لاجتماع الناس للصلاة فيه، ثم اختلف فقيل سميت بذلك فـي الجاهـلية، واحتج له بما حكاه أبو هلال العسـكري في كتابه الأوائل: أن أول من سمي الجمعة جمعة كعب بن لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أنـه جمـع قريشـاً وخطبهم، فسميت جمعة، وكـانوا لا يعرفون قبل ذلك إلاَ العروبة. وقيل إنما سميت بذلك في الإسلام، وذلك أن الأنصار قـالوا: إن لـليهود يوماً يجتمعون فيه بعد كل سـتة أيـام، وللنصارى كذلك فهلموا نجعل لنا يومـاً نجـتمع فيـه، ونذكـر الله تعالى فيه، ونصـلِّي، فقـالوا: يـوم السبت لليهود، ويوم الأحـد للنصـارى، فاجعـلوا يوم العروبة لنا، فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة الأنصاري فصلى بهـم يومـئذ ركعـتين، وذكَّـرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه، وأنزل الله تعالى سورة الجمعة.

عـلى أن السـهيلي في كتابه الروض الأنف قال: إن يوم الجمعة كان يسمى بهذا قبل يصلِّي الأنصار الجمعة.

أمـا أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال أبو هلال العسكري في أوائله: فإنه لما قـدم المدينة مهاجراً نزل على بني عمرو بن عوف، وأقام عندهم أياماً، ثم خرج يوم الجمعة عـائداً إلى المديـنة، فأدركته الصلاة في بني سـالم بـن عـوف في بطن وادٍ لهم، فخطب وصلى بهم الجمعة.

الـرواية الثانية: ما يروى عن العرب العاربـة مـن بني قحطان وجرهم وهو قولهم الأول: لأنهم كانوا يسمون الأحد أول، لأنه أول أعداد الأيام، ويسمون الإثنين الأهون: أخذاً من الهـون والهوين، وأوهد أيضاً أخذاً من الوهدة

وهي المكان المنخفض من الأرض، لانخفاضه عـن اليـوم الأول في العدد. ويسمون الثلاثاء جُباراً بضم الجيم لأنه جُبر به العدد، ويسمون الأربعـاء دُبَّاراً بضم الدال لأنه دبر ما جبر به العـدد بمعنى أنه جاء دبره، ويسمى الخميس مونِسـاً لأنـه يؤنس به لبركته، قال النحاس: ومـازال ذلـك في الإسلام، وكان النبي ﷺ لا يسـافر إلاّ فيه، ويسمون الجمعة العَروبة بفتح العيـن ومعنـاه اليـوم البيِّن أخذاً من قولهم: أعرب إذا أبان.

الـرواية الثالثة: ما حكاه النحاس عن الضحاك: أن الله تعالى خلق السموات والأرض فـي ستة أيام، ليس فيها يوم إلاَّ له اسم: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت.

وعـن أول أيـام الأسبوع ابتداءً، فقد اختلف الناس على ثلاثة مذاهب:

المذهـب الأول: أن أول أيام الأسبوع، وابـتدءا الخـلق الحد واحتج لذلك بحديث بان عباس ﷺ: أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خـلق السموات والأرض فقال: ((خلق الله عز وجـل الأرض يوم الأحد)) الحديث. وبالحديث الآخـر عن ﷺ: ((خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحـد)). وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أول الأسبوع الأحد.

المذهـب الثاني: أن أول أيام الأسبوع ابـتداءً السـبت، وبه ابتداء الخلق واحتج له بحديث أبي هريرة ﷺ: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: ((خلق الله التربة يوم السبت)) الحديث. وإذا كان ابتداء الخلق يوم السبت لزم أن يكون أول الأسبوع السبت.

المذهـب الثالث: أن أول أيام الأسبوع الأحـد لحديـث: ((خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحـد، ثم خلق ثانياً فسماه الإثنين)) الحديث. وابـتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم.. قال النحاس وهذا أحسنها.

ثم بعد هذا قال القلقشندي وأعلم أنه لا أصـل لذلك في الشريعة، ولم يرد فيه نص من كـتاب ولا سنة، وقد وردت القرعة عن جعفر الصـادق ﷺ فـي توزيـع الأعمال على الأيام فقال: السبت يوم مكر وخديعة، ويوم الأحد يوم غـرس وعمـارة، ويـوم الإثـنين يوم سفر وتجـارة، ويوم الثلاثاء يوم إراقة دم وحروب ومكافحـة، ويـوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء، ويقـال: يوم نحس مستمر، ويوم الخميس يوم دخـول عـلى الأمـراء وطلب الحاجات، ويوم الأربعاء يوم خلوة ونكاح.

ووجهـوا هـذه الدعـوى بأن قريشاً مكرت في دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد، وأن شعيباً سافر للتجارة يوم الإثـنين، وأن حواء حاضت يوم الثلاثاء، وفيه قتل قابيل هابيل، وأن فرعون غرق هو وقومه يوم الأربعاء، وفيه أهلك الله عاداً وثموداً، وأن إبـراهيم دخل على النمرود يوم الخميس، وأن الأنـبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعـة، وقـد نظـم بعـض الشـعراء هذه الاختيارات في أبيات فقال:

لـنعم اليـوم يـوم السـبت حقاً
لصـيد إن أردت بـلا امـتراء
وفـي الأحـد البـناء فـإن فيـه
تـبدّى الله فـي خـلق السـماء
وفـي الإثـنين إن سـافرت فيه
سـترجع بالـنجاح وبالغـناء
وإن تـرد الحجامـة في الثلاثاء
ففـي سـاعاته هـرق الدمـاء
وإن شـرب امـرؤ مـنكم دواء
فـنعم اليـوم يـوم الأربعـاء
وفـي يـوم الخميس قضاء حاجٍ
فـإن الله يـأذن بالقضـاء

ويــوم الجمعــة الــتزويج حقّــاً
ولــذات الــرجال مــع النســاء

وقــد وضــع أهــل الفــن المهتمون بالأوقات والحساب: آلات يستدلون بها على ما مضى من ذلك وما بقي ولتحرير المواقيت مثل الاصــطرلاب، والطزجهارة والبنكام. وقد اهتم أدبــاء وشــعراء العــرب بوصف هذه الآلات، ووردت قصــائد في أوصافها عديدة خاصة في العصــر العباســي وفــي الأندلــس حيث كثر الاهتمام بالعلم وآلاته.

أما الشهور فهي عربية وغير عربية. كمــا تنقسم الشهور إلى نوعين: شهر طبيعي وشهر اصطلاحي.

فالطــبيعي هــو مدّة مسير القمر من حيــن يفــارق الشــمس إلى حين يفارقها مرة ثانية.

وقيــل: هو عود شكل القمر في جهة بعيــنها إلى شــكله الأول. وهــذا هــو الشهر القمري.

وأمــا الاصــطلاحي: فهــو مدة قطع الشــمس مقــدار بــرج من بروج الفلك وذلك ثلاثون يوماً وثلث عشر يوم بالتقريب وهذا هو الشهر الشمسي، وهذا مذهب الروم والسريان والقبط والفرس.

والعــرب قــد سمّت الشهور بأسماء مستعملة وأسماء غير مستعملة.. فأما الأسماء المســتعملة فهــي الشــهور: المحرم، صفر، الــربيعان، الجماديان، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعة، ذو الحجة. ويقال إن أول من ســماها بهــذه الأســماء كلاب بن مرة، وإنما وصفوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حــالات وقعت في كل شهر. فسمي الشهر بها عــند ابــتداء الوضع، فسموا المحرم محرماً، لأنهــم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرموا القتال فيــه فســموه محــرماً، وسموا صفراً، لصفر بيوتهــم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات، وقيــل لأنهم كانوا يغيرون على الصفرية وهي بــلاد. وشهرا ربيع لأنهم كانوا يخصبون فيها بمــا أصــابوا فــي صــفر، والربيع الخصب، والجماديــان مــن جمد الماء، لأن الوقت الذي ســميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً فيه لبرده، ورجب لتعظيمهم له والترجيب التعظيم. وقيــل لأنــه وســط الســنة فهــو مشتق من الــرواجب، وهي أنامل الأصبع الوسطى. وقيل إن العــود رجب النبات فيه أي أخرجه، فسمي بذلــك. وكذلك تشعبت الأعواد في الشهر الذي يليه، فسمي شعبان. وقيل سمي بذلك لتشعّبهم فيــه لــلغارات، وسمي رمضان أي شهر الحر مشــتق من الرمضاء. وشوال من شالت الإبل أذنابها إذ حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع. وذو القعــدة لقعودهــم عن القتال فيه، إذ من الأشهر الحرم، وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمي به.

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سرْد وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد هو رجب.

أمــا الأشــهر غيــر المستعملة فهي أســماء كــان العرب العاربة اصطلحوا عليها وهــي: مؤتمر ناجر، خوّان صوان، ويقال في بُعــتان، رُنى أيــده، الأصم عادل، ناطل واغل، ورنه بُرَك.

والشــهور عــند اليهــود أســماؤها: تشــرى، مرحشــوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسار، أيَّار، سيوان، تموز، آب، أيلول.

والشهور العجمية أقسام بحسب الأمم الــتي تنسب إليهــا: منها الشهور القبطية، وتنســب لقــلطيانوس وكل شهر منها ثلاثون يومــاً، وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية

جعلوه كبيساً في آخر شهر منها، وهي: توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى.

وأول توت يكون التوروز، وفي أول يوم كيهك تدخل الأربعينات وهي أربعون يوماً باردة تؤذن بالشتاء، وفي الرابع من برموده تدخل الخمسينات وهي أيام حارّة تؤذن بالصيف.

ومنها شهور السريان والروم وهما متفقان في العدد والدخول، والسريانيون ينسبون شهورهم لأغسطس وهو قيصر، وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين، ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها، وفيها يقول الكيزاني:

شهور الروم ألوانُ
زيادات ونقصان
فتشرينهم الثاني
وأيلول ونيسان
ثلاثون ثلاثون
سواءٌ وحيزران
وأشباط ثمان بعد عشرين له ثان

والسبعة التي تركها كل شهر منها يزيد يوماً. وأول شهور السريان: تشرين الأول ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم تشرين الثاني ويوافقه نوفمبر من شهور الروم، وهو ثلاثون يوماً، ثم كانون الأول ويوافقه ديسمبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم كانون الثاني ويوافقه يناير من شهور الروم وهو أول سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوماً، ثم شباط ويوافقه فبراير من شهور الروم وهو ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم، ثم آذار ويوافقه مارس من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم نيسان ويوافقه إبريل من شهر الروم وهو ثلاثون يوماً، ثم أيّار ويوافقه مايو من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم حزيران ويوافقه يونيه من شهور الروم وهو ثلاثون يوماً، ثم تموز ويوافقه يوليه من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم آب ويوافقه أغسطس من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم أيلول ويوافقه سبتمبر من شهور الروم وهو ثلاثون يوماً.

وأما شهور الفرس فهي موافقة لشهور القبط في العدد، لأن كل شهر منها ثلاثون يوماً، إلاَّ أبان ماه، وهو الشهر الثامن منه فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء، ويسمونها الأندركاه ولكل يوم من أيام الشهر اسم خاص، يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة موكل به، فأسماء الشهور منها: أفريدونماه، (وهو رأس سنتهم) أرديهشت ماه، حرداد ماه، تيرماه، تردماه، برماه، مهرماه، أبان ماه، أدرماهن، دي ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه، ويضيفون بقولهم "ماه" أي القمر.

ولا شك أن عدد الأشهر في السنة، وعدد الأيام في الأسبوع من الأمور التوقيتية، وأنها مما علّمه الله لآدم كما في قوله تعالى: ((وعلَّم آدم الأسماء كلها..)) [البقرة، ٣١].

وللثعالبي في فقه اللغة آراء حول الألفاظ والكلمات ودلالاتها ما بين تلقيني وتوقيفي، وبين مستقى من دلالته أو صوته، أو اشتقاقه ليس هذا مجال بحثه.

ولما كان من آيات الله في خلقه: اختلاف الألوان والألسن، وذلك بتعدد اللغات، فإن كل لغة لأمة من الأمم للأيام والشهور والسنين عندهم مسميات مستمدَّة من اللغة التي يتكلمونها، ودلالاتها وفق مفهوم هذه اللغة.

أمـا ثبات الشهور باثني عشر فأمر لا إشـكال فيه، عند جميع الأمم، وإن تخبَّطت فيه العـرب فـي جاهليـتها، يجاريها بعض الأمم المماثـلة لهـا فـي المعـتقد، ونحن معاشر المسلمين نثبت ما أبانه الله كما جاء في سورة الـتوبة: ((إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شـهراً فـي كـتاب الله يـوم خلق السموات والأرض، مـنها أربعة حرم، ذلك الدين القيِّم، فـلا تظـلموا فيهـن أنفسكم..)) [٣٦] . وفي الآيـة الـتي بعدها جاء ذكر النسيء الذي هو زيـادة فـي الكفر، في تحليله عاماً وتحريمه عاماً، فقد اختلف فيه المفسرون، فقالت طائفة: كـانوا يبدِّلون بعض الأشهر الحرم بغيرها من الأشـهر، فيحرّمونها بدلها، ويحلون ما أرادوا تحـليله م الأشهر الحرم، إذا احتاجوا إلى ذلك، ولكن لا يزيدون في عدد الأشهر الهلالية شيئاً، ثم من أهل هذه المقالة من قال كانوا يحرِّمون صـفر مكانـه، فكأنهم يقترضونه ثم يوفونه، ومنهم من قال كانوا يحلّون المحرم مع صفر، مـن علم ويسمونها صفرين ثم يحرمونها من عامل قابل، ويسمونها محرَّمين، ولذا جعل الله الأهـلة مبيِّنة لأيام الشهر، ودخوله وخروجه، فكانت العبادة في الإسلام مقرونة بذلك كما قال تعالى: ((يسألونك عن الأهلة، قيل هي مواقيت للناس والحج..)) [البقرة، ١٨٩].

حيـث لا يعرف الناس رمضان دخولاً وخـروجاً إلاَّ بـالهلال، وقد قال ﷺ: ((صوموا لرؤيـته وأفطـروا لرؤيـته، فإن غمَّ عليكم – والضـمير يعود للهلال – فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً)).

وكذا لا يدركون مواعيد الحج، ودخول الشهور كلها وخروجها إلاَّ برؤية الهلال، ولذا فإن الشهر القمري ينقص عن الشهر الشمسي بما يقارب ١٣ يوماً في السنة، أي في كل ٣٠ سـنة شمسـية نقـص سنة قمرية. ومن هنا نـلمس أن المطـبِّقين للسنة الشمسية قد علوا الفـرق موزَّعـاً عـلى شـهور السنة، حسب اصطلاح الواضعين واتفقوا في البداية على أن تكـون بعضها من ٣١ يوماً وبعضها من ٣٠ وبعضـها أنقص، حتى يكون التوزيع مستغرقاً لـلفرق، فكـان هـذا عوضاً عن النسيء عند الجاهليين.

أمـا الصلاة عند المسلمين، فهي في أوقاتهـا الخمسة يوميًّا تقترن بالساعات التي كـانت تعـرف بالشـمس ومسـيرتها نهاراً، وبغـروبها وغـروب الشفق ليلاً، ومع طلوع الفجر للصيام بالإمساك، ولوجوب صلاة الفجر، كما في حديث جبريل عليه السلام الذي حدد فيه وقت كل صلاة: بدءاً ونهاية، وقال: يا محمد الصلاة بيـن هذيـن الوقـتين، وخلاصـة ذلـك لمن لـم يستحضـره: الظهـر بعـد زوال إلى أن يكـون ظل كل شيء طوله، والعصر من كون ظـل كـل شـيء طوله، إلى أن يكون مثليه.. وهـذا هـو قـرب غـروب الشـمس حيـث وقـت النهي عن الصلاة، ومن غروب الشمس إلى أن يغيـب الشـفق يكـون وقت المغرب، والعشـاء مـن غروب الشفق إلى أن يمضي ثـلاث الـليل، والفجـر من طلوع الفجر وهو الخيـط الأبيـض من الخيط الأسود، إلى قرب طلوع الشمس.

وهذه الأوقات التعبُّدية: صلاة وصياماً قـد فرضـت عـلى الأمم قبلنا، ولكنهم عدَّلوا وبدَّلوا كما أخبر الله عنهم في كتابه الكريم.

وجبريل عليه السلام لم يحدد الأوقات كما في الحديـث بالسـاعات المعـروفة اليـوم، التي اصطلح فيها أن الساعة ستون دقيقة، والدقيقة سـتون ثانيـة، والـثانية دقتان، والبلاغيون يقولون: لا مشاحّة في الاصطلاح.




الشميم

شعر: حمد العسعوس

بمناسبة المشاركة في الأسبوع الثقافي السعودي المقام بدمشق

خلال الفترة من ١-٥ شعبان ١٤٢٤هـ

بيـــن الـــبلابل.. ألفـــة وتــــناغم
والشـــام.. غـــرد ســـربها المـــتلاحم
فـــي (حمـــص) ديـــك الجـــن غـــادر قـــبره
وأتى يطـــوف عـــلى الـــربى، ويـــزاحم
ومعـــرة الـــنعمان.. فـــر حكيمهـــا
مـــن محبســـيه، وجاءنـــا – يـــتلازم
لـــزم الســـماحة، والإبـــاء، وعـــزة
فـــي عفـــة.. يـــرنو إليهـــا الصـــائم
ونـــزار.. أشـــعلنا وميـــض طيوفـــه
فـــوق الســـواعد، والوجـــوه يـــداوم
جئـــنا إلى (الفيحـــاء) نحـــو ضـــريحه
فـــإذا عـــليه نـــوارس وحمـــائم
تـــأوي قصـــائدنا لدوحـــتها الـــتي
آتـــت ثمـــار الشـــعر وهـــي بـــراعم

* * *







يـــا شـــام.. مجـــدك فـــي الـــورى مـــتوراث

لـــلمجد - فيـــك - شـــواهد ومعـــالم

الأبجديـــــة.. أنـــت مهـــد حـــروفها

والضـــاد - عـــندك - بحـــرها المـــتلاطم

مـــنك العـــروبة تســـتمد شـــموخها

تـــاريخك الأمـــوي.. مجـــد جـــاثم

وتقـــوم للأديـــان - فيـــك - مســـاجد

وكـــنائس وصـــوامع وعواصـــم

والمســـجد الأمـــوي يـــنهض - شـــاهداً

أن الشـــآم - لـــنا - ربـــاط دائـــم

*   *   *

يـــا شـــام.. أرضـــك موئـــلي ومـــنازلي

فيهـــا - لـــنا - الماضـــي، وفيهـــا القـــادم

يـــا شـــام.. أهـــلك صـــحبتي وقبائـــلي

تمـــتد.. أعـــراق - لـــنا - ومكـــارم

ننســـى - إذا جئـــناك - كـــل عيوبـــنا

وتغيـــب عـــن أفـــق الحديـــث هـــزائم

نـــأتي إليـــك، وفـــي العيـــون تفـــاؤل

وعـــلى القـــلوب تحـــط - فيـــك - عـــزام

*   *   *







يـــا شـــام.. أنـــت صـــديقتي وقصـــيدتي

كالصـــبح.. لا تـــبدو عـــليك طلاســـم

لـــك – قـــد لبســـت مـــن القصـــيد عمامـــة

بيضـــاء.. يلبســـها المحـــب الهـــائم

والشـــعر – فيـــك – عـــلى الـــرجال عمـــائم

وعـــلى النســـاء قلائـــد وخواتـــم

والشـــام.. دار العشـــق، فـــي أحيائهـــا

للعاشـــقين مـــنازل، ومواســـم

يـــا شـــام.. شمشـــمت الشـــآم، وشـــمها

شـــم يشـــم شـــميمه المتشـــائم

وإذا شـــممت الشـــام، شـــم شـــميمها

شـــممي، وشـــام عـــن التشـــاؤم شـــائم

فهـــنا (دمشـــق) – لـــنا – تمشـــط شـــعرها

حوريـــة، ولـــ (قاســـيون) تـــنادم

واللاذقيـــة تســـتريح – عروســـة

للـــبحر، يشـــهد عمـــرها المـــتقادم

والفســـتق الحلـــبي.. عـــند حقولـــه

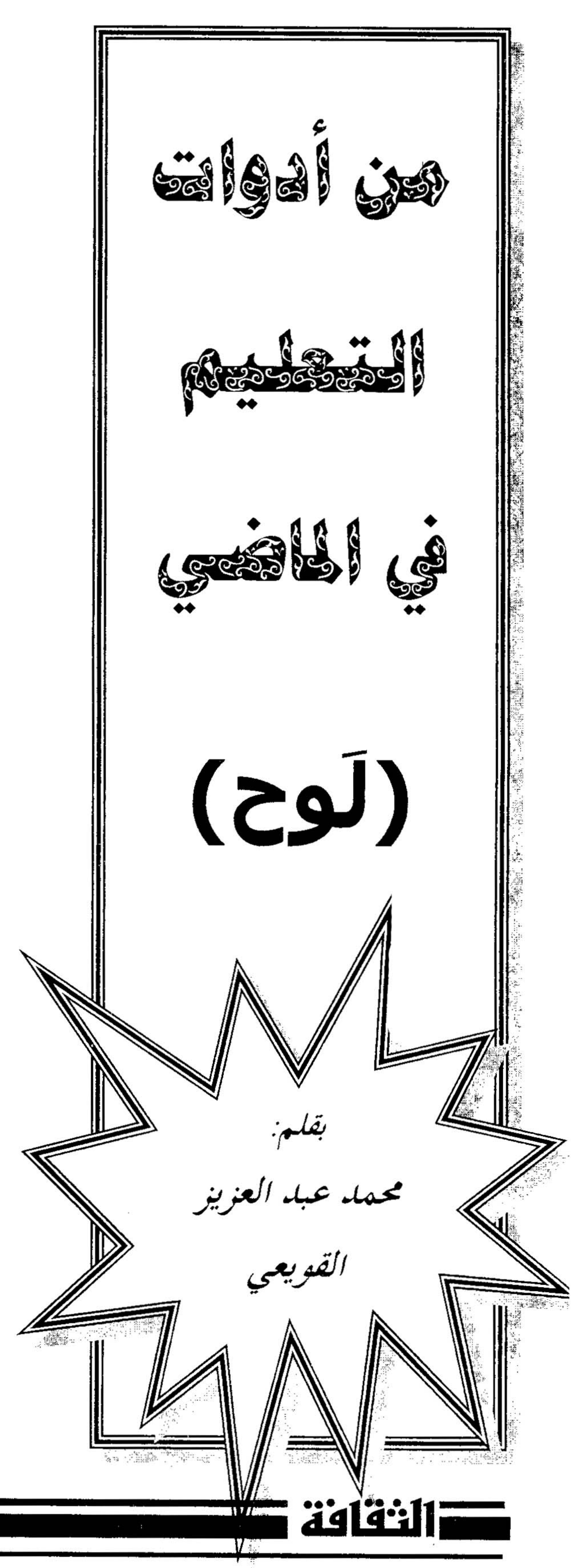
وقفـــت – هـــناك – كواعـــب ونواعـــم

يـــا شـــام.. حـــبك قـــد طـــغى بمحاجـــري

وإذا طـــغى حـــبي فلســـت أقـــاوم

*　　*　　*



اللّوح. من أدوات المدرسة القديمة في عصــر الكــتاتيب. وأساس الخامة من خشب الأثــل أو مـــن الطلح لقوته وصلابته. والنجار الشــعبي هو الذي يقوم بنجارته وإعداده لهذا الغــرض ثم يعرضه للبيع إلى من يشتريه من أوليــاء الأمور لأبنائهم ليتعلموا بواسطته عند المطــوع إذا أن اللوح هو الوسيلة السائدة في ذلــك الوقت كأداة ضرورية للتعليم بل هو من أهم مستلزمات التلميذ في الماضي وقد درست فيه مع أقراني وتحدثت عنه في باب المدرسة القديمـــة وذلك بتوسع في الجزء الخامس من موســوعتي المتواضعة تراث الأجداد والنجار الشــعبي يعــدُّ اللوح من قطعة الخشب السابق ذكــرها مستطيلة الشكل بعرض ٢-٤ سنتمترا تقريــبا وذو فتحة مناسبة وحجم هذا المقبض يــربط بهــا ليسهل حمله أو تعليقه وجاء في المعجم الوسيط الجزء الثاني اللوح كل صفحة عريضــة خشباً كانت أول عظماً أو غيرها وما يكــتب فيــه مــن خشب ونحوه وفي التنزيل (وكتبــنا له فـــي الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء) ولوح (الإردواز) لوح من حجــر خـــاص يسهل فيه محو الكتابة. ولوح الجســد كل عظم منه فيه عرض كالكتف. وقد حدثــني أحد كبار السن قال. بأنني في صغري مع أقراني كنّا نقرأ في اللوح وكنا نفسله بمادة طيــنية تســمى الطلو بتشديد الطاء وكنّا نأخذ الجد (المداد) الخاص بالكتابة من غسيل الشيال نجمعه في زجاجة أو جرّه ونستعمله كحبر بعد أن نضــيف عليه بعضاً من الصمغ وبعضاً من سواد القدور أي السنون حسب اللسان الدارج وصــحتها الســخام بتشديد السين كما ورد في القــاموس وأساس البلاغة من أنّ السخام هو سواد القدر وفي العقد الفريد من الشعر القديم: مديــنة معــروفة بوخشــمه فغادروها مخمة مســخّمه وأخــبرني راوية آخر قال بأننا نعد

الحبر القديم من ثلاثة أنواع هي الرمان (القشر) وسنا القدور الصمغ والملح. وأخبرني راوية آخر من كبار السن قال: بأن القلم الذي كنّا نكتب به هو قصبة تبرى وتشقّ من رأسها وبعد ذلك تكون صالحة للكتابة. وفي مكتبتي الخاصة مخطوطة من سبع ورقات تتحدث عن الأحبار والأقلام والليقه والأخيرة وهي محبرة من الخشب خاصة بحفظ الحبر والأقلام وهي تسمية فصيحة. وأخبرني راوية آخر بأن الأقلام القديمة التي كنا نستعملها نأخذها من أعواد القصب والقصفر ومن شجر المرخ ويذكر اللوح إبن قاضي أزرعات قوله عندما قرّض كتاب ذوي الأفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام لعلام المحدّث يوسف بن حسن بن أحمد الشهير بابن الميرّه الصالحي وقد نقلته من كتاب المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل طبعة قديمة وغير مؤرخه حيث يقول:

يا كتاباً أزرى بكل كتاب
هو في الأرض لوحنا المحفوظ
زاد ربي منشيه علماً وفضلاً
ثم لا زال سعده المحظوظ

ومن الشعر الشعبي القديم من غناء العزاق:

أبو بطن كما اللوح ولا علقة قاري
ولاكتبت به البسمله وللهيّه

وفي الحلقة السيراء لابن الآبار يذكر في ترجمة عبد العزيز بن عبد الناصر أبو الأصبع قوله. كان أديبا شاعراً ظهرت منه نجابة في صغره وحُكي أن أول لوح كتبه عند دخوله الكتّاب بعث به إلى أخيه الحكم المستنصر وكتب إليه من شعِره:

هاك مولاي خطا
مطّه في اللوح مطّا
ابن سبعٍ في سنيه
لم يطق للوح ضبطا
دمت يا مولاي حتى
يولد ابن ابنك سبطا

والتلاميذ في الماضي يسمون القرّاية بتشديد الراء. ومن شقاوة بعض القراية في الماضي خاصة ممن لا يحبون الدراسة ويتهربوا منها أي أنهم يفاختون حسب اللسان الدارج. فإنهم يعمدون إلى تخبئة الواحهم في بعض الأماكن البعيدة عن مقر الدراسة وعندما يحين موعد خروج القراية فإنهم يعودون لأخذ الواحهم والعودة إلى منازلهم متظاهرين بأنهم قد عادوا لتوهم مثلهم مثل زملائهم المواظبين على الدراسة ولكنهم في الأصل عكس ذلك فقد كانوا لاهين في إخراج صغار العصافير من الآبار القديمة المهجورة والمعروفة باللسان الدارج بالمفارخ أو المفرخة (أي صغار العصافير) أو من على رؤوس النخيل العالية الارتفاع المعروفة باللهجة الدارجة (بالعيدان) الواحدة (عيدانه) ومن طرائف ما أذكره عن اللوح أننا في حالة المشاجرة فيما بيننا بعد خروجنا من مقر الدراسة أي المدرسة القديمة فإن وسيلة الشجار تكون بالضرب بالأيدي أو الحصى وأحياناً باللوح وقد يتطور الشجار إلى تدخل الأهل أو المطوع وكثيراً ما يحتوي الخلاف، بعضا من الماره أو من أهل الحي أو من الآباء وينته الأمر وكأن شيئاً لم يكن. رحم الله آبائنا وأساتذتنا وجزاهم الله عنا خير الجزاء. وقبل أن أختم ما جال بخاطري عن اللوح أذكره عبارة قديمة كانت شائعة في الماضي يقولها المطوع للتلميذ عندما يرى أنه قد حفظ الدرس المكتوب له على اللوح. يقول له قم اغسل لوحك حافظ وذلك كي يكتب له درساً آخر..




رسالة من قيس

شعر: محمد بن سعد المشعان

أنــــا المجــنونُ فـــي حُــبِّي عــلى شــفتي صــدى قلــبي

أنـــاجي الـــليلَ عـــن ليـــلى وأشــكوها إلى الشُّــهبِ

عـــلى كفِّـــي حمـــلتُ القـــلبَ مـــن دربٍ إلى دربِ

ليـــروي – نازفـــاً بالشّـــعْرِ قـــانٍ – ســـيرةَ الحُـــبِّ

أنا المجنونُ في حُبّي

يقـــولُ الـــناسُ إنـــي هـــاتِكٌ – بالشـــعر – أســـتاري

ومُـــبْدٍ صـــفحةَ الأســـرارِ قـــد غُصَّـــتْ بأســـراري

وقـــدْ سَـــيَّرْتُ – مـــن دارٍ – أحاديـــثي إلى دارِ

ولا ضـــيرٌ عـــلى المجـــنونِ أنْ يَهْـــذي بأشـــعارِ

أنا المجنونُ في حُبّي

أنـــا المجـــنونُ، حَسْـــبي أنَّـــني المجـــنونُ يـــا عُـــذَّالْ

وسِـــامٌ قولكـــم: مجـــنونٌ، فـــي دربِ الهـــوى جـــوَّالْ

هنيـــئاً فوزكـــم بالجـــاهِ "فـــي دُنْيـــا الـــورى" والمـــال

دعـــوا ليـــلى، دَعُـــوا المجـــنونَ فـــي أوهامِـــهِ يَخـــتالْ

أنا المجنونُ في حُبّي







أنـــا قيـــسُ الـــذي روَّى صــحاري نجــدِ بـــالدَّمْعِ
شــريدٌ فـــي ذُرَ "الـــتُّوباد" فـــي مـــنأى عـــن الـــربّعِ
إذا مـــا هـــاجَتْ الذِّكْـــرى ولَـــجَّ الأهْـــلُ فـــي مَـــنْعي
أهجـــتُ الطَّيــــرَ بالأنَّـــاتِ فاهـــتاجَتْ إلى الـسَّـــجعِ

أنا المجنونُ في حُبِّي

أرى العُشَّـــاقَ مـــن بعـــدي عـــلى دربـــي ولا ســـلوى
وكُـــلُّ مـــن هـــوى ليـــلاه يـــبدو صـــارخ الشـــكوى
يُلاقـــي بعـــضَ مـــا لاقيـــتُ فـــي "ليـــلاي" مـــنْ بـــلوى
فيـــا ربَّـــاهُ هـــل بـــاحت صـــحارى نجـــد بالـــنَّجوى؟

أنا المجنونُ في حُبِّي

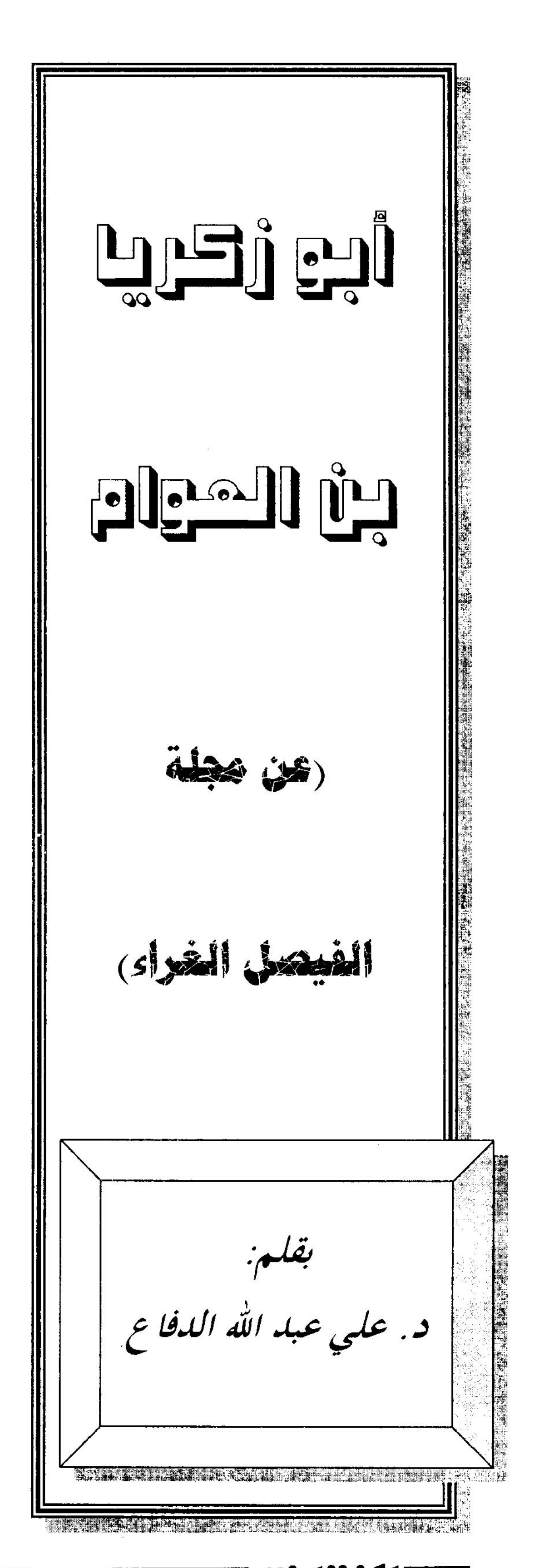
تـــلاحى – بعدمـــا أوديـــتُ – سُـــمَّارٌ وعُـــبَّادُ
وقـــالوا: قيـــسُ عُـــذريٌّ بخيـــطِ الوهْـــمِ مُـــنْقادُ
وقـــالوا: لـــم تَكُـــنْ "ليـــلى" ولا "قيـــسٌ" وقـــدْ زادوا
فقـــالوا: لـــم يكـــن "وَرْدٌ" ولا شِـــعرٌ و تـــوبادُ

أنا المجنونُ في حُبِّي

أنـــا قيـــسُ الـــذي أعـــطى لمَعـــنى الشِّـــعْر إشـــراقه
ولاقى – فـــي هـــوى ليـــلى صـــنوفَ الـــبُؤسِ والفاقـــه
تعـــودُ اليـــومَ روحـــي لـــلحِمى والـــربِّعِ مُشـــتاقه
ومـــا ألفَـــتْ مُعَـــنَّىً عيـــنُهُ بـــالدَّمْعِ مِغداقـــه

أنا المجنونُ في حُبِّي



هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي. ترعرع ونما في إشبيلية، لا نعرف عن تاريخ ولادته أو وفاته إلاّ القليل. ولكن المؤرخين في تاريخ العلوم تواتر عنهم أنه عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ويرجع عدم ضبط تاريخ ميلاده أو وفاته إلى أن الفترة التي عاش فيها ابن العوام كانت من أصعب الفترات على الحضارة العربية والإسلامية، بل إنها فترة غروب هذه الحضارة العظيمة عن الأندلس. يقول عز الدين فراج في كتابه (فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية): "أما أبو زكريا بن العوام الإشبيلي فلا نعرف سوى القليل عن حياته ونشأته، بل لا نعرف متى عاش بالضبط. وكل ما نعرفه أنه عاش في إشبيلية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، في ذلك ذروة التقدم الفكري والحضاري وكانت الفنون الزراعية تزدهر بنوع خاص في هذه المنطقة، منطقة الوادي الكبير، وهي مازالت حتى اليوم تمتاز بوفرة خصبها ونضرتها، ودرس ابن العوام الفنون الزراعية ووضع كتابه (الفلاحة)".

وينقل لنا أحمد شوكت الشطي في كتابه (مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي) التقرير الذي قدمه أنطوان باسي إلى الجمعية الوطنية الزراعية في الجمهورية العربية السورية: "إن ما لكتاب ابن العوام من عظيم الشأن لا يقتصر على كونه حاوياً للفنون الزراعية القديمة التي تتبع في الأندلس، بل لهذا السِّفْر قيمة ثانية هي أنه كشف النقاب عن أنه كان للعرب نظريات في الطبيعة والكيمياء لم نكن نرقب وجودها. وهو سفر مملوء بالفوائد يرينا على شكل موجز ما كانت عليه زراعة الأمم القديمة ثم ما بلغته في

من الرقي بعدها في الأندلس وفي جميع البلاد الإسلامية إبان الفتح الزاهر.

يرى أبو زكريا بن العوام أن الزراعة فن من الفنون المهمة لحياة الفرد، ومعنى فلاحة الأرض عند ابن العوام هو إصلاحها، وغراسة الأشجار فيها وتركيب ما يصلحه التركيب منها، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها، وإصلاح ذلك وإمداده بما ينفعه ويجود، وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والرديء منها، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس من الشجر والحبوب والخضروات، واختبار النوع الجيد من ذلك، ومعرفة الموعد المناسب لزراعة كل صنف فيها، وكيف يتعهده بالعناية والرعاية.

قيمة الكتاب

لقد استفاد علماء العرب والمسلمين المتخصصون في علم الزراعة والنبات من ابن العوام بمعرفة خواص التربة والأسمدة والحرث والغرس والسقي استفادة أنارت لهم الطريق. وحاول علماء الغرب ونجحوا بترجمة إنتاج ابن العوام إلى لغاتهم المختلفة فاستخدموا منهجه العلمي في زراعة أراضيهم التي تعتبر الآن من أحسن الأراضي الزراعية في العالم من ناحية الاستثمار والإنتاج.

يقول قدري حافظ طوقان في كتابه (العلوم عند العرب والمسلمين): "حاول أبو زكريا بن العوام الإشبيلي أن يطبق معارف العراق واليونان والرومان وأهل إفريقيا على بلاد الأندلس، وقد نجح في تطبيقاته. وانتفع بذلك عرب الأندلس والأوروبيون فيما بعد. وصاروا (أي العرب) يعرفون خواص الأتربة وكيفية تركيب السماد مما يلائم الأرض أكثر من غيرهم، كما أنهم أدخلوا تحسينات جمة على طرق الحرث والغرس والسقي. وهذا ما جعل الأندلس في العهد العربي جنة الدنيا".

اهتم أبو زكريا بن العوام بدراسة علم الزراعة والنبات اهتماماً بالغاً لأسباب كثيرة منها أن علم الزراعة والنبات له تأثير مباشر على حياة البشر، كما تتجلى قدرة الله سبحانه وتعالى في النبات.

يقول سيد حسين نصر في كتابه (العلوم والحضارة في الإسلام): "إن كتاب الفلاحة الذي يحتوي على خمسة وثلاثين باباً في الزراعة لابن العوام يعتبر بحق كتاباً فريداً في حقل الزراعة، واهتم ابن العوام في هذا المجال لأن قدرة الله تتجلى في النباتات كما هي واضحة في الإنسان. ولو أردنا أن نقيّم كتاب الفلاحة بموضوعية فإنه كتاب يضاهي كتب الفلاحة التي تدرّس في جامعات العالم اليوم".

أمّا رام لاندو فيذكر في كتابه (علماء العرب في الحضارة) أن ابن العوام من علماء القرن الثاني عشر الميلادي، المرموقين في حقل الزراعة والنبات. لقد احتوى كتابه (الفلاحة) على ٥٨٥ نبتة مختلفة، كما أن وصفاً لكل واحدة، مما جعل إسبانيا مصدراً زراعياً لجميع القارة الأوروبية ومن ثم الولايات المتحدة الأمريكية. والحق إن ابن العوام عالم تفخر به البشرية أجمع لما قدمه من خدمة لهم حول قوتها وعقاقيرها اليومية.

لقد تبحّر أبو زكريا بن العوام ليس فقط في علم الزراعة والنبات، ولكنه أيضاً أدلى بدوله في حقل الطب. ولكن شهرته العظيمة نالها في كتابه عن الفلاحة. ويذكر الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) أن أبا زكريا بن العوام الإشبيلي يعتبر بحق من أطباء الأندلس الذين نبغوا في القرن الثاني عشر الميلادي. وأضاف

الدوميلي قائلاً: "كتاب ابن العوام (الفلاحة) هو أهم كتاب عربي من هذا النوع. ومع أن ابن العوام كان يؤلف كتبه على أساس يجمع بين التبحّر العلمي في الكتب الإغريقية والعربية، وبين المعارف العملية العميقة التي استفادها من التجارب المباشرة، فإنه يقدّم وصفاً دقيقاً لعدد يبلغ ٥٨٥ نوعاً من النباتات ذكر من بينها ٥٥ نوعاً من الأشجار المثمرة. ولم يتردد ماكس مايرهوف في التصريح بأن هذه الكتاب ينبغي أن يعد أحسن الكتب العربية في العلوم الطبيعية، وعلى الأخص في علم النبات".

أقسام الكتاب ومحتواه

وقد أعجب عز الدين فراج بكتاب (الفلاحة) لابن العوام فقال في كتابه (فض علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية): "يقسم ابن العوام مؤلفه في الفلاحة إلى قسمين كبيرين، يشتملان على خمسة وثلاثين باباً، ويتناول القسم الأول معرفة اختيار الأراضي والأسمدة والمياه وصفة العمل، في الغراسة والتركيب، وما يتصل بذلك. والقسم الثاني يتضمن الزراعة وما إليها، وفلاحة الحيوان، أو بعبارة أخرى ما يتعلق بتربية الماشية وعلاجها. وينطوي تحت القسم الأول، عدد من المسائل الزراعية العامة مثل: دراسة تربة الأرض، والوقوف على معدنها، واختيار ما يصلح أن يزرع في كل نوع منها، مع شرح للأسمدة وطرق تجهيزها، وبيان منافعها للأرض والشجر، وسقي الشجار والخضر، ثم إنشاء البساتين، واختيار الأشجار وأنواع الثمار وأوقات غرسها، وتطعيم الأشجار وتلقيحها، ثم علاجها من الآفات، واختزان الحبوب والفواكه الغضة واليابسة وغير ذلك. وقد انتفع ابن العوام في هذا القسم المتعلق بالبساتين وغرسها بآراء سلفه وتجاربهم الكثيرة.

ويتناول القسم الثاني من مؤلف ابن العوام تربية الماشية وعلاجها ودراسة صفاتها التشريحية، ومعالجة كل عضو من أعضائها، وكل مرض من أمراضها. ويخصص خلال هذه الدراسة فصلاً عن الخيل، وصفاتها وكيفية تربيتها، وكيفية ركوبها، بسلاح أو بغير سلاح، ثم يتحدث بعد ذلك عن الدواجن وتربيتها والعناية بها، ثم عن النحل والمناحل والخلايا، ويبدي في ذلك كله كثيراً من الاستيعاب والدقة والوضوح".

فضله وأثره

ومن المؤسف حقاً أن كتاب (الفلاحة) لابن العوام لم يحقق التحقيق الذي يرجوه كل عربي ومسلم في هذه المعمورة. بل إن أقلام علماء الغرب تناولته وترجمته إلى اللغة الإسبانية والفرنسية والإيطالية لأهميته، بل ضرورته لطلاب جامعاتهم. يقول الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) نشر نص كتاب (الفلاحة) مع ترجمة إسبانية في جزءين في مدريد عام ١٨٠٢ ميلادية، بقلم **Jose Antonio Bangueri**، ونشرت له ترجمة فرنسية في جزءين سنتي ١٨٦٤، ١٨٦٧ للميلاد، بقلم **J.J.Climent Mullet**، وكلتا الطبعتين غير مرضية تبعاً لجورج سارتون، ونشر **Cardo Crispo Moncada** النص مع الترجمة الإيطالية لقطعة لم تطبع بعد بعنوان: **Sul taglio della vite de ibn Al Awwam it -congres des obientalistes de Stockholm leiden 1891**.

لقد اشتهر أبو زكريا بن العوام في علم النبات، فهو حجة في هذا الموضوع. كتب

كتابه (الفلاحة) الذي تناقلته الأجيال لما فيه من معارف وخبرات وتجارب ثمينة في حقل الزراعة. لقد احتوى الكتاب على طرق فلاحة البابليين والآشوريين والإغريق والأندلسيين والمغرب العربي، فاستفاد منها علماء العرب في مجال علم النبات استفادة عظيمة. وقد ترجم كتاب (الفلاحة) لابن العوام إلى عدة لغات في العالم. وبقي كتاباً منهجياً مقررا على طلاب الجامعات المتخصصين في حقل علم النبات والفلاحة ليس في العالم العربي والإسلامي، ولكن أيضاً في العالم الغربي والشرقي على السواء.

ويذكر دانيال لكلير في كتابه (تاريخ طب العرب) أن ابن العوام كان عملاقاً في حقل الفلاحة، فقد قدّم للإنسانية من المعارف التطبيقية ما تحتاج إليه. كما أن إنتاجه يتسم بالتوثيق التاريخي الذي يهتم به علماء القرن العشرين الميلادي، فهو عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، ولكن بعقلية القرن العشرين الميلادي.

إن بعض ما أنتجه أبو زكريا بن العوام في ميدان الزراعة والنبات يتضح بالخدمات التي أسداها على هذا الحقل، والمآثر الحميدة التي تركها للأجيال، والعلم النفيس الذي أورثه للعلماء والباحثين، مما ساعد على تقدّم علم الزراعة والنبات ليس فقط في العالم العربي والإسلامي، ولكن أيضاً في العالم الغربي. وهناك إجماع عند المؤرخين في العلوم أن أبا زكريا بن العوام كان من نوابغ علماء العرب والمسلمين في الزراعة والنبات، ومن الذين مكنوا الإنسان من الوقوف على أسرار مخلوقات الله تبارك وتعالى، وما فيها من مدهشات ومحيرات لا ي إلاّ الله.

لا نعرف مع الأسف من إنتاج أبي زكريا بن العوام إلاّ كتاباً واحداً (الفلاحة) وذلك عن طريق علماء الغرب الذين اهتموا بإنتاجه لاعتقادهم أنه صاحب ثقافة عالية واطلاع واسع في حقل الزراعة والنبات، كما أن الدوميلي ذكر أن أبا زكريا بن العوام من أعلام الطب وأصحاب المواهب النادرة والعبقرية المرموقة في كل من الزراعة والنبات والطب. حقيقة أن ما ذكره الدوميلي ليس بغريب على عالم إسلامي له اهتماماته في الزراعة والنبات أن يكون قريباً من حقل الطب، لأن معظم العشابين في ذلك الوقت صيادلة وأطباء في آن واحد.

وأعتقد أن إنتاج أبي زكريا بن العوام في الطب والزراعة والنبات قد فُقد خلال الحروب العاصفة التي مرت بالأمة العربية والإسلامية في الأندلس أيام حياة عالمنا ابن العوام. ولكن يجب أن نعرف أن ابن العوام ساهم في تطور علم الزراعة والنبات في الأندلس مساهمة لا يمكن لمؤرخ للعلوم الطبيعية أن يتجاهلها.

وخلاصة القول إن ابن العوام أدى رسالته في الحياة على أفضل وجه، وحرك عقله المتوقد في ميادين الثقافة الإنسانية التي أغنت الحضارة العربية والإسلامية في مجال الزراعة والنبات.

إن مؤلف ابن العوام (الفلاحة) أدى إلى حركة فكرية واسعة دفعت بالعلم والفكر إلى التقدم والنمو. والله نسأل أن يكثر من أمثال هذا العالم الجليل الذي عاش في فترة صعبة على الأمة العربية والإسلامية، وأن يجعله مثالاً يقتدى به شباب الأمة العربية والإسلامية.



رحلت إليك..

شعر: عبد الرحمن صالح العشماوي

بـــنيتُ الأمــــاني وشـــيَّدتُها	فـــأحدثْتِ فيمـــا بـــنيتُ شـــروخا
وجـــئتُ إليـــكِ.. أزفُّ المـــنى	فـــزدتِ صـــدوداً وزدتِ شـــموخا
وأرســـلتِ نحـــوي مـــراكبَ شـــوقٍ	فجـــاءتْ، ولكـــن أبـــتْ أن تُـــنيخا
وأحسســـتُ أنَّـــكِ ســـرُّ اشـــتياقي	فـــأزمعتُ - بعد الإباء - الرضوخا
وجـــئتُ لأســـمع شـــدْوَ الهـــزارِ	فقـــد مـــلَّتِ الأذْنُ شَـــدْواً مســـيخا
وتـــاقتْ إلى نغـــمٍ شـــاعري	تزيديـــنَه فـــي فـــؤادي رســـوخا
نشـــيدُكِ عَـــذْبٌ وأنَّى لمثـــلي	إذا ســـمع الشـــدْوَ الاَّ يُصـــيخا؟؟
ودَربُـــك وَحْـــلٌ.. ولكـــنْ بعيـــدٌ	عـــلى قـــدمٍ حـــرَّةٍ أنْ تســـيخا

* * * *

دخـــلتُ إليـــكِ.. وحولـــي نفـــوسٌ	تـــذوبُ غـــروراً وتـــرجو شـــموخا
تطيـــر العصـــافيرُ فـــي الجـــوِّ تنسى	زمانـــاً مضـــى حيـــن كانت فروخا
ويقضـــي الفـــتى عمـــرَه في الأماني	فمـــا يبـــلغ القصـــد حـــتى يشـــيخا
وكـــم مـــن رجـــالٍ أجـــادوا الـــنفاقا	فصـــاروا عـــلى غيـــر علمٍ، شيوخا
هـــو الـــرزقُ.. هـــذا يقيـــم قصـــوراً	وذلـــك يشـــقى ليبـــنيَ كوخـــا







إن روافد الثقافة والمعرفة مفتوحة بمصراعيها للإنسان رجلاً كان أو امرأة دون تحديد أو تميز لما للفعل الثقافي من قوة بناءة تخدم ما حولها وحين تسعى المرأة بحثاً عن تلك الروافد فهذا لا شك له عدة معان إيجابية أهمها أن وجود المرأة المثقفة معناه وجود المرأة المتعلمة وبالتالي المرأة الواعية، وهذا بحد ذاته مكسب عظيم باعتبار المرأة هي الأم والمربية للأجيال التي بها يعتمد – بإذن الله – في بناء أفراد ومجتمعات فاعلة صحيحة حاضراً ومستقبلاً.

ومن منطلق طموح المرأة الثقافي فإلى أي مدى تتحقق لهذا الطموح فرص التعبير عن نفسه شكلاً ومضموناً خاصة مع الرجل وأعني بالرجل – الزوج – لأن المتعارف عليه أن – الزوج – هو الرجل الوحيد المعارض. لذا كثيراً ما يتهم بأنه وراء إنكاره للمرأة المثقفة وإحجامه عنها

أو سد باب النقاش معها أو وضع العراقيل أمام تطلعاتها الثقافية، ومهما كانت صحة أو خطأ هذا الاتهام إلاَّ أن هناك سؤالاً يطرح نفسه وهو – لماذا يخشى الرجل المرأة المثقفة؟ والجواب: أرى صعوبة تحديده وذلك لاختلاف المستويات الثقافية أو العقول الواعية بين رجل وآخر وحسب المواقف التي قد ترتب عنها صدور ذلك الموقف من ثقافة المرأة أو المرأة المثقفة؟ وكثيراً ما يؤكد الرأي النسائي بأن الأسباب تكمن في رواسب اجتماعية وبيئية عاشها الرجل فكان هذا موقفه وتلك نظرته.

بينما أكد أحد الآراء الرجالية أن رفض – الرجل – ليس كونه ضد ذلك الحق أو أي نوع من أنواعه وإنما الخلاف هو أن لا تكون ثقافة المرأة سبباً في حدوث خلل في بعض المثل والأخلاقيات والآداب التي نعتز بها فلا بد أن تكون ثقافة المرأة "مقيدة" حتى لا تتحول إلى "وقاحة" في العلاقة بين المرأة والرجل باعتبار أن **هناك** مفهومات مختلفة وظروفاً تاريخية واجتماعية متباينة تحكم تلك العلاقة.

إذن أمام هذه التأكيدات الرجالية هل يعني هذا فرض سلطة الرجل على توجه أو طموح المرأة الثقافي؟!

إن الاستقلال موجود في معاجم الدنيا كلها فهنا لا بد من مد جسور الحوار الديمقراطي بين الرجل والمرأة شرط ألاَّ تنسى المرأة الزوجة حق الرجل – الزوج – الذي بيَّنه الإسلام وعلى رأسه ذلك الحق طاعته في غير معصية – الله – وألاَّ يحول الرجل – زوجه – بيته – إلى ثكنة عسكرية وسلطة متحجرة، بل يؤمن في داخله بهذا الحق دون تحسر بأسلوب التفاهم الواعي والثقة المتبادلة حتى تتحول ثقافة المرأة مع وعي الرجل إلى منابر للبناء الأسري والاجتماعي مقياسها النجاح وإنتاجها الإبداع..




مدي شراعك..

شعر: د. إبراهيم العواجي

مــدي شــراعك هــذا البحر صار لنا ... أمواجــه دفــق قــلب فارق الحزنا

كــانت شــواطئه جــرداء قاســية ... تســتقبل الــبوم والغربان والشجنا

كــف الــرياح عــلى أمواجــه لهــب ... خواؤهــا مــد فــي أعماقــه كفــنا

ويــوم مــزق صــوت الحــب هجمته ... وثــار يرسم فوق الموج وهج سنا

عــادت إليــه طيــور العشــق تمنحه ... عهــداً جديــداً بأن يبقى الزمان هنا

لا ترهــبيه فهــذا الــبحر نمــلكه ... أمواجــه ولآلــي الــبحر مــن دمنا

نعــدو عــلى شــاطئ الأحلام نرسمها ... وشــما نهاراتــه فــي عرفنا زمنا

ونستشــير هديــر المــوج في سبق ... حــتى يســايرنا فــي دفــق نشوتنا

مــدي شــراعك في دنياي دون أسى ... فالــبحر حــبك والأيــام صــرن لنا

هــذي يــدي، لامسي الأوراد راعشة ... تحــنو وتعــلن مــيلاد الحيــاة هنا

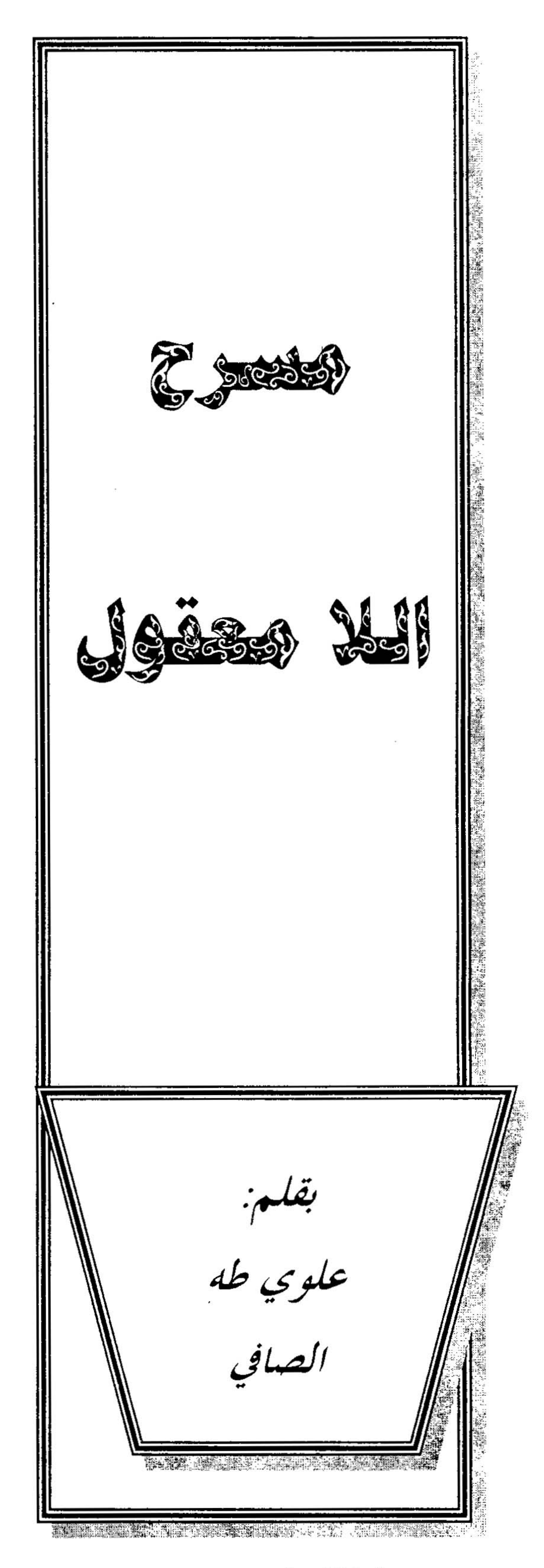
دمــي جــداول عشــق أنــت منبعها ... تنســاب حالمــة والحــب ثالثــنا

عطشــى بــرغم نهور الحب في دمنا ... وما ارتوى العشق، ما ابتلت منابعنا

وقــد وهــبت لعيــنيك الهــوى ثمنا ... ما أرخص العمر إن كان الهوى ثمنا

مــدي شــراعك يــا نجلاء في حلمي ... فمــن حجــاه رموش الحب قد أمنا



حينما برز مسرح [اللامعقول] إلى الوجود في أوربا على يد بعض كتاب المسرح أمثال يوجين يونسكو.. وبيكيت طلع علينا توفيق الحكيم كرائد كبير للمسرح العربي بمسرحيته (يا طالع الشجرة) وصدرها بما يتردد على ألسنة الطبقات الشعبية من تعابير تمثل مسرح اللامعقول كقولهم:

يا طالع الشجرة
هات لي معك بقرة
تحلب وتسقيني
بالملعقة الصيني

وتوفيق الحكيم أراد من خلال هذه المسرحية ومن خلال مسرحيته الأخرى (الطعام لكل فم) أن يثبت لنا أن أدب مسرح اللامعقول موجود لدينا.. وله نماذج في الأوساط الاجتماعية الشعبية وفي أساطيرها.. وحكاياتها المختلفة.. ولم يستسغ الدكتور طه حسين أدب اللامعقول واعتبره ضربا من ضروب العبث. وكثر الجدل فيما بعد حول مسرح اللامعقول بين نقاد المسرح العربي وكتابه.. وهو جدل يحدث عادة استتلاء لكل جديد.. وغير

مــألوف في حياة أي أمة من أمم الأرض. وقبل هذا الجدل دار جدل آخر تناول قضية وجود أو عدم وجود أدب مسرحي عربي.. وهــل عــرف العــرب الأدب المسرحي؟.. واشــترك فــي هذا المجال أو النقاش عدد كــبير مــن الــنقاد العرب.. والمستشرقين أمثال أرنست أرينان.

وقد ثار هذا الجدل مع ظهور تباشير أدب مســرحي فــي الأفــق العربي.. هذه التباشــير التي بدأت بالترجمة.. والاقتباس ثــم أصبحت فيما بعد واقعا حيا ملموساً.. كأدب مستقل له خصائصه بعد أن تحرر من طــريقة الــترجمة والاقتــباس.. وأصــبح للمســرح العــربي شخصــيته الخاصــة المــتميزة.. وبعــد أن أصبح له كتابه من الــرواد الأوائــل أمثال توفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي ويوسف إدريس وألفريد فرج وسعد الدين وهبة.. وقد انقسم الجدل حول هذه القضية إلى عدة فرق:

ففريق يرى أن هناك [ظواهر قديمة شــبه مســرحية في تاريخ الأدب العربي] وأظهــرها وجــود ذوق عام الاستماع إلى الحــوار الــذي يـدور في مجالس الخلفاء والأمــراء حيث كان الشعراء يتبارون في تــناول المقطعــات الشعرية.. وحيث كان العــلماء والــرواة يتســابقون فــي إيراد القصص.. كما أن قصص الجاحظ ومقومات بديــع الــزمان والحريــري تشبه التأليف المســرحي مــن نــواح كثيرة ويمثل هذا الفريق توفيق الحكيم.. وألفريد فرج وهما أشهر وأبرز كتاب المسرح العربي.

وفــريق ينفي وجود أدب مسرحي عــربي فــي الماضي .. ويمثل هذا الفريق الــناقد المســرحي جلال العشري في كتابه [المســرح أبــو الفــنون] وكذلــك الزيات وتيمــور.. ولويس عوض.. ويلتقي أيضاً مــع هؤلاء في بعض النقاط توفيق الحكيم وألفريد فرج.

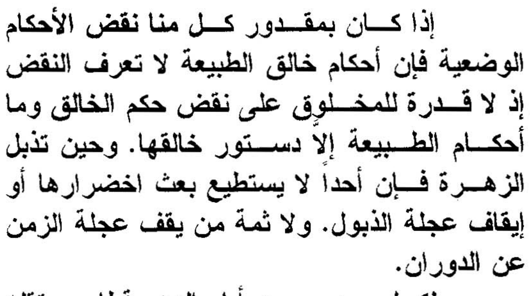
وفــريق ثــالث يرى أن البحث عن جــذور المســرح العربي يجب أن يتم في احــتفالات الفاطميين.. وفي ألعاب المماليك الفروســية.. وعروض الدمى المتحركة أو الفانوس السحري.

وأنــا هــنا لا أكــتب تاريخا للأدب المســرحي العــربي حــتى أنــاقش هــذه الآراء.

بوح الكلمات

من يهزم الليل؟

بقلم:
عزة رشاد



إذا كان بمقدور كل منا نقض الأحكام الوضعية فإن أحكام خالق الطبيعة لا تعرف النقض إذ لا قدرة للمخلوق على نقض حكم الخالق وما أحكام الطبيعة إلاّ دستور خالقها. وحين تذبل الزهرة فإن أحداً لا يستطيع بعث اخضرارها أو إيقاف عجلة الذبول. ولا ثمة من يقف عجلة الزمن عن الدوران.

لكل يوم من أيام الدهر قطار يستقله للإبحار عبر الزمن، قطار لا نملك إلاّ السير عليه، وما أكثر قطارات العمر التي حملت أيامنا ورحلت تاركة لنا رماد الذكريات فكأن بنا حطب الزمن في موقده المستعر. تتزامن دموعنا مع رحيل أعزائنا لكننا لا نشعر برحيل أيامنا إلاّ بعد انطفاء فوانيسها وعند ذلك يعتصر الشوق إلى ضياء الأمس الراحل. فتتحجر نظراتنا وكأنها بذهولها الرهيب ستعيد الماضي.. ستنثر زهو الشباب وغروره وجماله ليتربع على عرش الحاضر.. وتطول النظرات والسرحات حتى نفيق على رنين هاتف أو صوت آدمي أو حرقة وجنة من دمعة فنصحو من غفوتنا، ونبتسم في خجل لأننا لن نستطيع إرجاع أيامنا ولكن تتحول ابتساماتنا إلى شجن جميل وعاطفة رقيقة إذا استطعنا اصطياد عصفورة شعرية تزقزق قائلة:

لو عاد لي أمسي المسافر
لجعلته حقلاً لحاضر
لي في الفؤاد سريرة
والله أعلم بالسرائر
حلمي يعيد لي الصبا
ورؤاي في الزمن المهاجر
فأذيب أيامي على
من باسمه شدت قياثر

إننا نبكي الماضي متجاهلين أن بمقدورنا صنع شموس الغد وأن نبقى منتشين بالنهارات البهية وبأقمار مساءاتنا حتى حين لا تكون هنالك من شموس وأقمار أكثر ضوءاً ونوراً ودفئاً من الإيمان والفضيلة فما أعظم الإنسان حين يتزود لغده بنورهما.

الإيمان وحده يهزم الليل، ويجعل زهور العمر دائمة الفوح، والينابيع دائمة التدفق فلا تعود المراثي تقترب من نوافذ الأعراس.




السؤال..؟!

شعر: حمد العسعوس

ليـــلى.. تناشـــدني أن أعـــزفَ الوتـــرا
وفـــي دروب الهـــوى، أن أنـــثرَ الـــدُّررا
ليـــلى..! أنـــا شـــاعرٌ، لكنـــني كَـــلِفٌ
بغيـــر شـــعري الـــذي قـــد جـــفَّ وانكســـرا
ليـــلى..! أنـــا شـــاعرٌ، لكـــنَّ قافيـــتي
بـــلا وقـــودٍ، وليـــلي يفقـــدُ القمـــرا
كـــان الشـــبابُ، وكـــانت نـــارُ أســـئلتي
مشـــبوبةٌ، وخيـــالي يعشـــق السَّـــفَرا
وكـــان زِنْـــدُ شـــبابي تحـــت عاطفـــتي
وكـــنتُ خـــلفَ قضـــايا الأهـــلِ مُســـتعرا
وكـــنتُ أفـــتعل الأحـــداثَ. إن ســـكنتْ
فـــي داخـــلي.. وريـــاحي تـــنفُخ الشُّـــرَرا
واليـــومَ يُطـــفئُ أيـــامي تقادمُهـــا
والشـــعرُ يطفـــئُهُ يأســـي، إذا حَضَـــرا
ليـــلى.. أرى الـــركب قـــد نـــاءَتْ قوافلـــهُ
والعُمْـــرَ. كالشـــمس، نحـــو الأفْـــق مـــنحدرا







أنـــا الـــذي مـــن خيـــالي صُـــغْتُ مـــلحمةً
تـــبكي مقاطِعُهـــا الحـــرمانَ والضَّـــرَرا
قـــد اســـتوتْ لُغـــتي.. والـــروحُ ظامـــئةٌ
لا شـــيء غيـــرُ ســـرابٍ أرهـــق الـــنَّظرا
فأنقذيـــني، وكونـــي أنـــتِ مُلهِمَـــتي
وحَـــرِّكي راكـــداً.. كالـــبحرِ إن هـــدرا
بحـــرٌ عـــلى شـــاطئيهِ المـــوجُ منحســـرٌ
ففجِّـــري ثـــورة المـــوجِ الـــذي انحســـرا
ســـؤالُكِ الصـــعبُ يشـــجيني ويؤلمـــني
ويـــنعشُ الـــرُّوحَ والإبـــداعُ والسَّـــمَرا
وصـــوتُك العَـــذْبُ إيقـــاعٌ وقافيـــةٌ
فـــي دفـــتر الشـــعر، صـــاغَ الـــلحنَ وانصهرا
ليـــلى..! أديمـــي حديـــثا فـــي مهاتفـــةٍ
مـــنها شـــبابي نمـــا فـــي القـــلب وازدهـــرا
ألقـــي عـــليّ ســـؤالاً، تـــلوَ أســـئلةٍ
فإنَّـــني حجـــرٌ.. لا يُشـــبهُ الحَجـــرا..!
أضـــمُّ شـــلاَّلَ عشـــقٍ لا يُفَجِّـــرهُ
إلاَّ الســـؤالُ.. فيـــأتي الشـــعرُ مـــنهمرا
ففجّـــري لغـــة العشـــق الـــتي عجـــزتْ
ريـــحُ الكهولـــة أن تمحـــو لهـــا صُـــورا







أوَّاهُ مـــن زمـــنٍ نـــأوي لغابـــته

فـــلا نصـــادفُ فـــي رمضـــائه شـــجرا

أوَّاهَ مـــن زمـــنٍ ينســـى بلابِـــلَهُ

تقضـــي بأقفاصـــها.. والـــليلُ مـــا انحســـرا

أوَّاهُ مـــن زمـــنٍ يـــنفي قصـــائدهُ

فـــلا نـــرى فـــي نواديـــه لهـــا أثـــرا

هـــذا ســـؤالُك – يـــا ليـــلى – يباغتُـــني

وبلبـــلي لـــنديِّ الغُصـــنِ قـــد هجـــرا

هـــذا ســـؤالكِ.. والخمســـونَ تائهـــةٌ

كالـــنجم – فـــي أفـــقِ الظـــلماءِ – قـــد ظهرا

ليـــلى.. أعيـــدي عـــلى ليـــلي كواكـــبهُ

وأشـــعلي مـــن شـــموعي، كـــي أرى الحُفَـــرا

هُـــزِّي إليـــكِ بأغصـــاني وأوردتـــي

فقـــد تُســـاقِطُ أشـــجاري لـــكِ الـــثمرا

تلمَّســـي فـــي رمـــادي جَمْـــرَ عاطفـــتي

وأوقـــدي فـــي ضـــلوعِ الشـــاعرِ الشَّـــرَرا

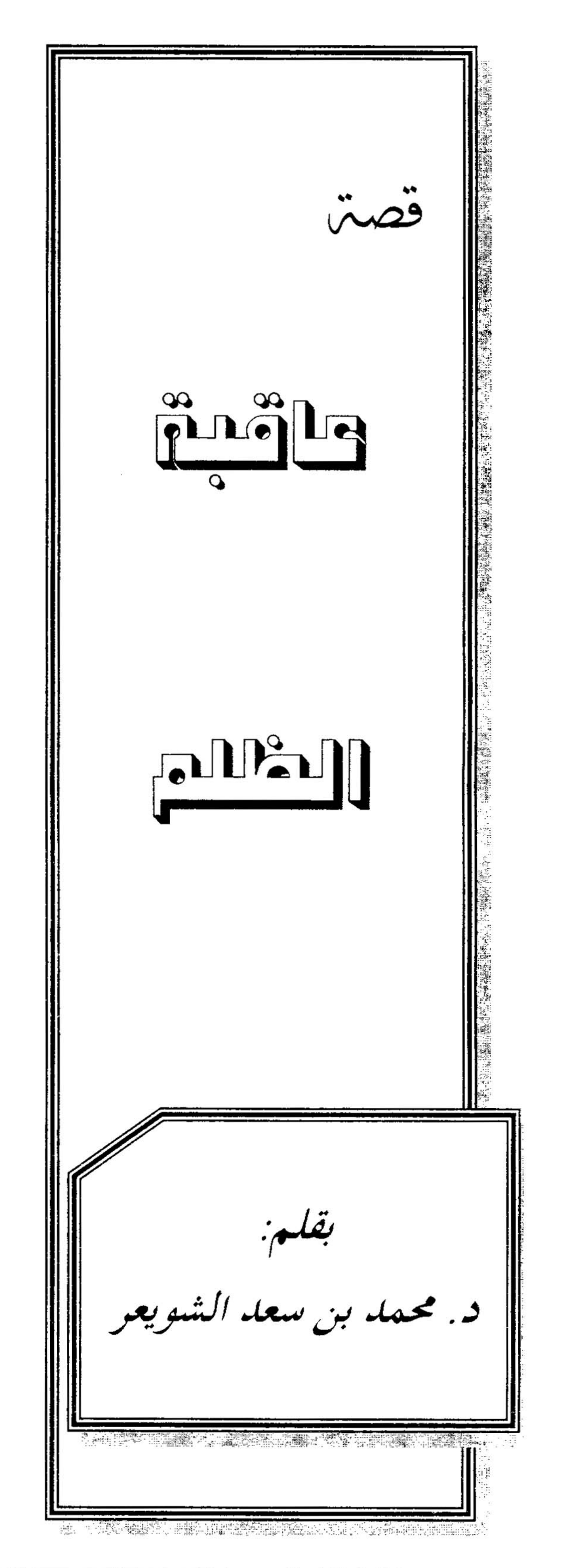
دعـــي القصـــائد تهمـــي مـــن ســـحائبها

واشـــعلي بَـــرقَها واســـتقبلي المطـــرا

دعـــي القصـــائد تذكيـــني، كمـــا فعـــلتْ

ليـــلى بمجـــنونها، واســـتنطقي الأثـــرا



تــدور أحداث ووقائع هذه القصة، منذ قــرن وربع تقريباً وهي البداية لهذه الحكاية، فقــد كـــانوا ثلاثة اخوة، ظهرت عليهم سيماء الــنجابة، وانفتح أمامهم باب الرزق، فهم أينما توجهــوا، وبــأي ســلعة تجاريـــة ابتاعوا أو اشتروا، كان الربح وفيراً، حيث سال المال بين أيديهــم، ودّر الــزمن عليهم أخلافه، في وقت كـــانت بلاد نجد خاصة والجزيرة العربية عامة فـــي شح، وأهلها يعصرهم الفقر ويعانون معه شدة الجوع والمرض، مع شح في الأقوات.

والحيـــاة إذا ابتسمت للإنسان، وأقبلت الدنيـــا عـــليه، فـــإن العـــاقل المتبصر يخاف، ويحتســب للعواقب، لأن للمال حقوقاً، وللجاه وعـــلو المكانـــة ضـــريبة.. ألم يقل سبحانه: ((والذيـــن فـــي أموالهـــم حـــق معلوم للسائل والمحروم)) [٢٤،٢٥ المعراج] ويقول تعالى: ((وأما السائل فلا تنهر)) [الضحى١٠].

لكـــن نشـــوة الجاه، وتدفق المال، قد يتسبب عنهما غفلة، تنسي الإنسان ما يجب أن يـــتذكره، وتلهي عما يتحتم أن يراعي.. خاصة إذا كـــان الإنســـان يعيـــش في بيئة إسلامية، تـــربطه بأفـــرادها عقيـــدة دينية تفرض عليه حقوقـــاً، وتلزمه بواجبات، وبمجتمع يعين على أعمـــال الخيـــر، ولأنـــه يبصر بمداخله ليرعى طرق الإنفاق فيه.

نمـــت المادة تجارة وعقاراً عند هؤلاء الأخـــوة، وفي كل يوم يزداد الرصيد، ومع كل صـــباح تتسع أعمال التجارة وينمو مالهم حتى قيـــل: لو اشترى الواحد منهم حجراً أو عرض للبيع رملاً، لكان عزيزاً عند الناس، يتسابقون

لـلمزايدة فيــه، وحــب تمــلكه. فكان حظهم وتجــارتهم مضــرب المثل. ومع كثرة المال، ازداد نســلهم، واتّســعت شــهرتهم، ليس في بــلدهم أو محيطهم، بل تعدى إلى آفاق بعيدة، حيث قرروا توزيع العمل، أصغرهم في بلدهم، يســتقبل ويبيع ويشتري، ويوزع على عملائه في المنطقة. والثاني يسير مع القوافل الكثيرة والكبيرة برجالها وحراسها، المحملة بالبضائع المســتوردة، والبضــائع المصــدرة، في عمل دائــب، وتــنقلات مســتمرة بين أخوين وبين تجــارة الخليج وما وراءه. والثالث يتنقل بين مــن يتعامل معهم في الشام وما وراءها، وفي أرض الرافدين وما خلفها، وفي موانئ الخليج، وما تنقله السفن من البلاد البعيدة.. وكان أكثر اســتقراره في سوق الشيوخ لتوسطها ولتجمع الطرق بها. فكانت محط أنظار كبار التجار ذلك الوقــت. ســارت الأمور مقبلة عليهم سنوات عديــدة. فــاتخذ أخوهم في بلده لنفسه قصرا منيفا، به الحدائق الغناء.. والأشجار الوارفة.. والــثمار اليانعــة من كل نوع.. فكان جنة من جنان الصحراء الشهيرة.

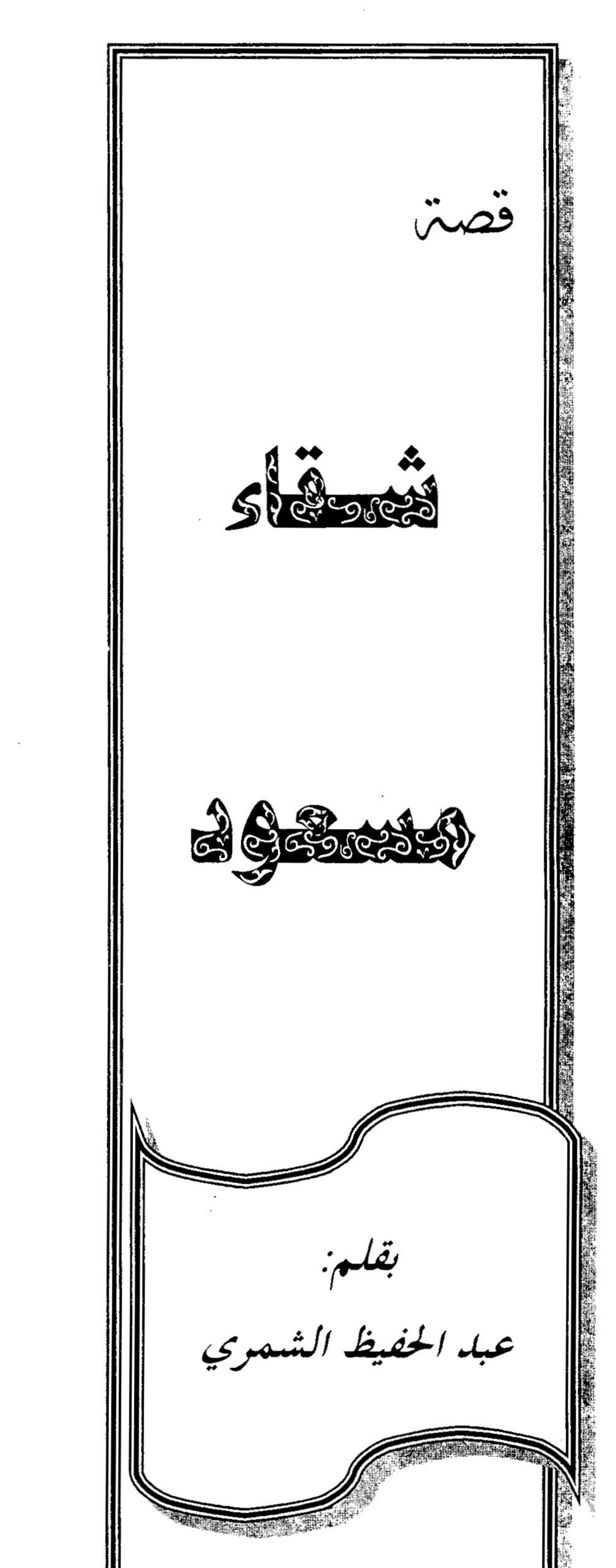
كــان وجهــاء المنطقة إذا قدموا تلك البلدة، لا يفارقون مجلس عبد الرحمن - وهذا هو الاسم الذي اخترناه لأصغرهم - إذ يجدون في كنفه حسن الوفادة، وبشاشة المحيا، ولذائذ الطعــام لهم، وللوجهاء الوافدين لبلده من كل مكان. كان عبد الرحمن منعّماً ومخدوماً: منعماً بما هو فيه، من لذة الحياة، ووفرة المال بذلك البريق يبهر في مجتمعه حيث يسيل بين يديه، إذ يعتــبر فــي وقــته كأحلام ألف ليلة وليلة. ومخدوماً بكثرة المماليك والخدم، الذين يتولون الأعمال العديدة ويراقبون إشاراته ليزدادوا في الاهــتمام.. بــل كل من حوله يتمنى أن يحظى بالخدمة عنده. مثل هذه النعم تحتاج إلى شكر، وأداء الحــق.. لكــن كما يقول دوام الحال من الحال.. والنفس لا بد من كبح جماحها، وصدق الله فــي قوله الكريم: ((كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى))، [٦،٧اقرأ] إذ النفس الأمارة بالســوء، تحــتاج إلى زمــام قوي يردها عن غيهــا، وقــرناء السوء، يلزم لهم قوة إرادة، وقوة إيمان، يردعان تسلطهم والتأثر بهم.

كــان مــن عادة الناس في البلدان في ذلــك الــزمن، أن يسرحوا يوميا منائحهم، مع الــراعي الذي يتقاضى عن كل رأس من الغنم مبــلغاً زهيداً في الشهر، في ذهابه بها صباحاً لــلمرعى، وعودتــه بها في المساء في عمل متواصــل، كل يوم بعد أن يتلمس لها المرعى الطيب يوماً بعد يوم، ويتوجس ما تجد فيه هذه الأغــنام شبعها لتسمن ويزيد لبنها، مما يغني أصحابها عن كلفة البحث لها عن طعام. وكان لدى أهل البلدة اصطلاح في المسميات، فكانوا يســمون بســتان عبد الرحمن المحتوي على قصــره ومــا يشتمل عليه من مزارع وأشجار (الحوطــة) ولعــل هذا من إحاطته بسور لــه أبواب يحفظه ويحميه. وراعي الغنم (الشاوي) ومجــرى الســيل الــذي ســقي هذه الحوطة (صنع). ولقد لوحظ أن راعي الغنم في مراحه اليومــي، كــان يتجنب المرور بهذه المنطقة، مهابة من عبد الرحمن، وتقديراً لمكانته. وفي يــوم من الأيام تنازع رجلان الكلام فيما يتعلق

بالــراعي، ولمــاذا لا يذهب للمراعي الخصبة خلف حوطة عبد الرحمن؟ لما فيها من نباتات وافــرة، ومــراع جيدة. ومع الأخذ والرد قال أحدهمــا: أنــا أحمــي الراعي من رجال عبد الرحمن، وأشجعه على الذهاب للمراعي المنوه عنها. وذلك من باب التعالي والاعتداد بالنفس. جــاء اليــوم الأول الذي يمثل التحدي، وخرج الرجال مع الراعي لحمايته، وحراسة أغنامه، ثــم عــاد فــي المساء، في أمور عادية جدا.. فظــنوا أن تخوفهم في غير محله، وأن الأمر أقــل مما كانوا يتخيلون، وغاب عنهم أنهم في مجــتمع تشتعل الفتنة فيه بكلمة، ويوقد النار شــرارة. حضــر الــرجل الــثاني مجلس عبد الرحمن متزلفاً ومتصنعاً، وهو يضمر الإضرار بمــن خاصمه، ويعمل الفكر في كيفية المدخل إلى تكــبير الصــغائر، وإيغار ما بين الجوانح، فاختــلس من عبد الرحمن نقطة ضعف، وقال: أغــنام الشــاوي (عوّاض) في ذهابها وإيابها، رأيــت أثرها وأنا قادم إليك قد أفسدت (الصنع) وهدمت جوانبه، ولو جاء سيل ما وصلكم منها شيء.. وتضيع المياه في الصحراء. سكت عبد الــرحمن على مضض، لكنه بيّت أمراً، إذ بعد صــلاة الفجر، دعا عشرة من مماليكه وخدمه، وأمــرهم بالــتهيؤ معــه. فخــرج مع طلوع الشــمس، وهــم وراءه، واعترضــوا طــريق (الشــاوي) وردوا بعنف الأغنام على أعقابها. ولــم يكفهم ذلك بل أمسكوا براعيها ثم انهالوا عــليه بالضرب الشديد، فأغمي عليه وأصابوه بأضــرار بالغــة. وصلت الأغنام للبلد بمفردها مخــلفة الراعي وراءها، فاسترعى ذلك كوامن النفوس، ففزع من فزع ليجدوا الراعي مكتسياً بدمائــه، مثخناً بجراحاته، فما كان منهم إلا أن حملوه إلى البلد، وتعالم الناس بالخبر. ولمكانة عــبد الــرحمن واخوته أرادوا تسكين الأمور، فقــرر أحدهــم أن يتولى علاج الراعي وتبرع آخــر بالإنفاق عليه حتى يتعافى مما حصل به مــن جراحات وكسور أو يكاد. وثالث رأى أن يــتفقد أحواله، ويتابع علاجه. وهكذا تسابقوا على رتق الخرق الذي اتسع بفعل عبد الرحمن ورجاله في تحمل جوانب من الرعاية والعناية بهــذا الــراعي. تحمل أهل البلدة تلك الحادثة عــلى مضــض، وهــدأوا الأمــور مصــانعة ومجاملة. لكن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجــاب، وعــبد الرحمن قد أخذته العزة، ونشــوة الانتقام فلم يعتذر لجماعته، ولم يقدم لــلراعي شــيئا يخفف الآلام الواقعة عليه. لقد ســرت دعــوة الــراعي المعتدي عليه ظلما، ووجدت عند الله باباً مفتوحاً، سرعان ما ظهر أثــرها حيث أن الراعي بعد ما شفي من علته، أصبح مشلولا قاصر القدرة على العمل. برزت للــناس آثــار هذه الدعوة تدريجيا، إذ في يوم مــن الأيــام، جــاء مربّي أغنام عبد الرحمن بأجودهــا وأنفسها ليجتر صوفها فاختل توازن واحــدة مــن أزكاها، وتدحرجت على الأرض وعــبد الرحمن واقف أمامه يرى الحادث عن كــثب حيــث انكســرت يدها، وصارت ترتعد وتنتفض. بكى عبد الرحمن لهذا المنظر فلامه مــربي أغــنامه بقوله: يا عمّ تبكي على شاة، وأنت تملك أموالا كثيرة لا تعد ولا تحصى. رد عــليه قائلا: لا.. إني لا أبكي على هذه الشاة،

ولا على عشر مثلها، ولكني أبكي على ما وراء ذلك لأنني خشيت من الإدبار، وأن يكون ما حصل للشاة بداية لما وراءها من شر. بعد أيام قلائل جاء أحد الخدم إلى حظيرة الإبل، في هزيع الليل، ليذهب بأربعة منها إلى المنحات لامتياح الماء وسقيى أشجار (الحوطة) كالعادة في المبادلة بين هذه الإبل، فوجد بعضها مضطجعة على جنبها، فحركها يريد إنهاضها وإذا هي ميتة. مع أنها في أول الليل كانت قوية سمينة ولا مرض بها.. ذهب إلى عبد الرحمن وأخبره فازداد حزنه، وبان الأثر في قسمات وجهه. وبعد أيام وصلت أخبار القوافل لتنزل عليه صاعقة أخرى: فقافلة أخيه قد اعترضها قطاع الطريق، ودارت بينهم معركة، فقتل فيها أخوه، وابنه معه، وثلاثة من رجاله، ونهبت القافلة عن آخرها. ثم بدأت تتوالى المصائب، وتزداد الخسائر.. إذ تغيرت الحال فبدل أن كان الفلس في يده يتحول إلى جنيه ذهبي، أصبح الجنيه الذهبي أقل بركة في يده من الفلس، وكسدت تجارته، فقرر أن ينكمش في مزرعته الوافرة بأشجارها ومياهها وخيراتها، وينعم بذلك بقية حياته.. إلا أن إرادة الله فوق كل شيء، ووعده سبحانه بنصرة المظلوم، وإجابة دعوته كما جاء في الحديث القدسي: ((وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين)). فقد أصبح عبد الرحمن يوما ليجد البئر قد انهارت، وسقط طيها في جوفها، وتلاءمت جوانبها عليها.. فحمل متاعه إلى بيت صغير كان للعائلة في وسط البلدة، وصار يمر (بحوطته) بين الحين والحين، ليرى وبحسرة جمالها يذبل، وأشجارها تتهاوى، والخراب يدب فيها، ويسري في جميع أطرافها يوما بعد يوم. حتى أصبحت أثرا بعد عين أمام ناظريه.

وهكذا توالت المصائب وانفض الناس من حوله: كسدت التجارة، وأغلق الدكان وبين الفينة والفينة يموت واحد من الأسرة، والخدم لا يجدون ما يقوتهم فذهبوا عنه، وأخوه الأكبر في الديار البعيدة، وصله خبر عنه بأنه مريض، وبعد فترة نعي إليه، كما باع مماليكه وكثيرا من مقتنياته وأملاكه.. وأصبح الذين يحسدونه بالأمس، يتأسفون على حاله اليوم. وهكذا يرى الله عباده العبرة في تصرفات هذه الأسرة، وما حل بها نتيجة للتكبر والظلم حتى مات عبد الرحمن فقيرا، بعد أن ذاق آلام الحزن.. ومرارة نكد الدنيا.. لكنه كان ملازما للمسجد، كثير الدعاء، لعل الله يجعل عقوبة الدنيا كافية عن عقوبة الآخرة. ويقول العارفون عن هذه الأسرة، إنه لم يبق لهم الآن عقب، حتى أن آخر امرأة تنتمي لهؤلاء الأخوة الثلاثة، ماتت قبل ستين عاما، وبموتها انسدل الستار على تاريخ هذه الأسرة، وأصبحت واقعتهم عبرة لمن يريد أن يعتبر. أما ذلك الراعي الذي تعدى عليه عبد الرحمن ورجاله، فقد جعل الله في ذريته النماء، وأصبح منهم الأغنياء وذوو الجاه، فإن الله سبحانه يرفع أقواما في هذه الدنيا، ويضع آخرين، وصدق القول المأثور: إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك.



مسعود ولدٌ عاق لوالديه... لا يحسن القراءة والكتابة، لفرط ما يلعب ويلهو..يُفضل اللعبَ على المذاكرة، ويؤثر الإزعاج على الهدوء، بل إنه أحياناً يصبح كثير الأذى.. ويمتد شقاؤه إلى الجيران والعابرين للطريق. يعاقبه أبوه بشكل يومي، لكثرة ما يخالف أوامره.. وتدعو له أمه بالهداية، كلما قامت تصلي. مدير المدرسة لم يعد يطيق طيش مسعود.. يكتب الرسالة تلو الأخرى لأبيه، ولكن دون فائدة. تمادى مسعود في شقاوته، وأصبح يؤذي حتى الدواب المسالمة والوادعة.. فما كان منه ذات يوم إلا أن آذى حماراً هرماً، أثناء سيره، ليقذفه بالحجارة.. ويغرز في جسده المسامير. ولم يطق الحمار الأذى، فاستجمع قواه ورفس مسعودا على نحو مباغت وخاطف. سقط مسعود الشقي على الأرض مغشياً عليه، فمر رجلٌ فحمله إلى منزل عائلته... ومكث في الفراش عدة أيام يتلوى من آلام مبرحة.

شعر مسعود بالوحدة وألم الضمير. زاره أصدقاؤه القليلون.. بكى وهو يتطلع في وجوه من عادوه.. فرأى من بينهم شيخاً مسناً جاء لزيارته، رغم أنه لم يسلم من أذاه. فما كان من الرجل المسن، إلا أن قبَّل مسعود بحنو، ومسح على رأسه ليتذكر مع من حوله من الأصدقاء أن الله سبحانه وتعالى لا يترك الظالمين يتمادون في ظلمهم، إنما سيقتص منهم عاجلاً أو آجلاً. انتبه مسعود جيداً، وفهم الدرس.. ليعود إلى صوابه... وفي أول يوم لخروجه من المنزل بعد الشفاء، حمل معه صدقة لوجه الله.. ووزعها على المحتاجين، فيما قدَّم اعتذاره لبعض من طالهم أذاه.

ولم ير في الشارع ذلك الحمار الذي رفسه تلك الرفسة التي أعادته إلى صوابه... ربما لو رآه لقدم له الاعتذار... لكنه سيحاذر هذه المرة خوفا من رفسة أخرى، قد تكون قاتلة!!




تائه.. بين شطين

شعر: سعد البواردي

عــــــلى أهْـــــداب عيــــــنك.. يــــــا حبيـــــــبي

تعــــــلّق.. مـــــا تـــــبقى مـــــن نصــــــيبي

أصـــــــارعُ موجـــــــة.. فــــــتهبُّ أخـــــــرى

ويســــــلمني "الهـــــبوبُ" عــــــلى "الهـــــبوب"

بــــــأيّ الشــــــاطئين هـــــــواي يرســــــو؟!

أفــــــي شــــــطر "الشــــــمال" أم "الجــــــنوب"؟

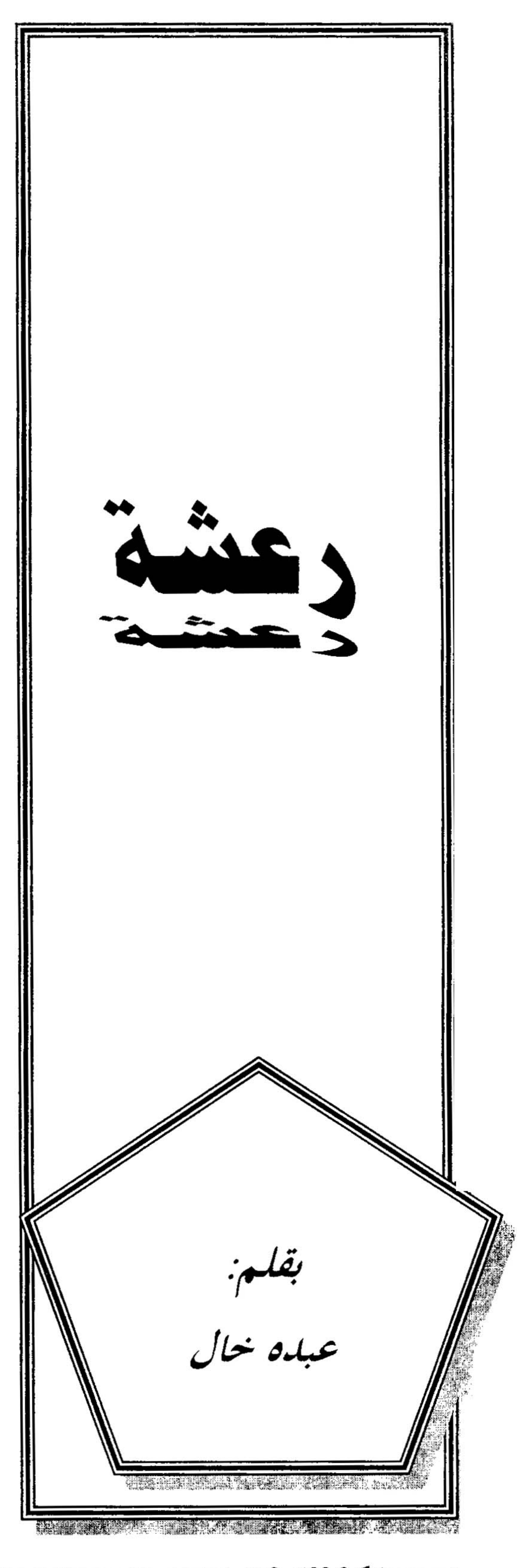
أأغمـــــض مقلــــــتي "حيــــــرى" و "حــــــرى"؟!

أأفــــــتحها عــــــلى "ريّ" و "طيــــــب"؟!

أأبْحـــــر؟! إن عيــــــنك لــــــي محيــــــط..

أأبحـــــر؟! أم ســــــيخذلني..؟ "أجيــــــبي؟"



كنت صغيراً في ذلك الوقت.

وكان شاهقاً لدرجة لا تصدق.

الناس يتحدثون عنه بتقديس مفرط وعلى مدار تاريخه المديد لم تقف عين أحد على ما بداخله، الكل يعظم تلك الحجب المتوارثة لما يكتنفه من أسرار، ومن وسوست له نفسه بهتكها يتلاشى في مكانه ويصبح أثراً بعد عين.

هكذا يقولون.

لهيب من الأحلام تركض في مخيلتي، قلت لها وهي تحتضنني بلهفة:

- غداً سأتمكن من الارتقاء.

ابتسمت في وجهي وربما داعبت خصلات شعري الراقصة في الهواء فأخذتني النشوة:

- سأصعد.

أطلقت صرخة استنكار مجلجلة وتبعتها بتحذيرات غليظة.

- إياك ثم إياك..!!

يومياً أعبره، فألمح السائرين بمحاذاته يحنون رقابهم ويباعدون بين خطاهم وأفواههم تدلق همهمات كهديل الحمام الساكن.

وقفت أتطلع لعلوه كان جداراً سامقاً تتدلى من على أسواره أشجار المانجو، والموز والرمان والبرتقال.

ثمار متعددة تغازل الجوعى والعابرين ولا تكلف المرء سوى مد يديه لقطفها، ولم يكن هناك من يعترض العابرين حين يقومون بقطف تلك الثمار المدلاة، الكل يقطف ما يشتهي من ثمار ويمضي.. وربما يعود في زمن قادم ويعاود الكرة بقضم الثمار التي تتساقط بين يديه من غير أن يجرؤ على التحديق لما خلف الجدار.

يبدو أنه اتفاق ضمني بين الأهالي عقدوه عبر سنوات طويلة فيما بينهم وأصبح قانوناً ملزماً ينص على جملة قصيرة نافذة:

- خذ ما تشاء لكن عيناك لا تتعدى أبعد من ذلك.

وبسبب هذا الإلزام تناسلت أقاويل شتى تتنبأ بما خلف الجدار، ومع توالد الحكايات المتزايدة لم يكن أحد يملك يقيناً كاملاً بما يحدث خلف ذلك السور الممتد إلى ما لا نهاية.

الشارع يكتنف بشراً لا حصر لهم: بيض وملونين، طوالاً وقصاراً، أصحاء ومرضى، باعة ولصوصاً، حرفيين وعاطلين عاهات وشحاذين، مرابين وسماسرة.

الشارع يكتظ بكل هؤلاء وبينهم يمتد هرج ومرج، همهمات، صيحات، مشاجرات، تبادل تحيات، صفقات، وحياكة مؤامرات. الكل يقف بجوار ذلك السور الذي يبدو خفيضاً ويحرك الرغبات لارتقائه.

ولكي لا ينزلق الناس في غواية الارتقاء، وقف شيخ مسن ناثراً نصائحه في مسامع العابرين والماكثين:

- لا يغركم دنوه فالقبر أكثر دنواً إلاَّ أنه يأخذ ولا يعيد.

لم يكن في حاجة لأن يذكر أولئك المنحيين مغبة الارتقاء أو التطلع لما خلف الجدار، لم يكن في حاجة لذلك ربما أراد من تلك النصائح أن تصل للآذان المردة من الصبية الذين يقفون بعيداً من كل شيء ويقتربون من كل شيء في آن.

في غمرة انشغال الناس بالتطلع لبعضهم والتزود بالأخبار وتوزيع أبصارهم في تعرجات الشوارع وبين النوافذ المغلقة والمفتوحة، أتخير مكاناً قصياً وأضع حجراً فوق حجر وأصعد فترتفع قامتي قليلاً، أمد يدي فيبتعد الجدار كثيراً.

واظبت على هذه العادة خلال سنوات طويلة، كنت أمني نفسي بالوقوف هناك، وكلما وضعت حجراً على حجر ابتعد الجدار وحلقت على جسدي ظلال تلك الثمار اليانعة. يومياً أستند عليه، أقيس قامتي برسم خط عند منتهى رأسي وفي كل يوم لا يبرح الخط من مكانه..!!

٣٠سم - ٤٠سم - ثلاث وخمسون سم - متر وخمس سم، متر ونصف.

عرفت أمي أني اخترقت سن البلوغ، حضنتني بين ذراعيها:

- الآن أنت رجل..

قلت لها:

- سأصعد..

أطلقت نفس صرختها القديمة وحضنتني لصدرها محذرة:

- إياك أن تفعل..؟

نشوة الشباب تجري في مفاصلي فأشعر أني أخترق الكون، ركضت للشارع وتطلعت لذلك السور العتيق، رأيت أشجار المانجو التي تتفاخر بثمارها في كل موسم وتمد أغصانها للشارع مبقية بعضها ملازماً لحافة ذلك الجدار المتعالي.

في كل جزء منه ثمرة تتدلى.. هنا الرمان.. هنا التين.. هنا كروم العنب.. هنا حبات اللوز.. هنا أشجار التوت، هنا أشجار النخيل.. هنا حبات الليمون الساكنة في أغصانها.. وعلى مسافات واسعة تراكضت زهرات الياسمين على الحواف.

أيقنت أنني قادر على الصعود وقطف حبة المانجو وقضمها بشهوة الانتظار الطويلة، وضعت حجراً فوق حجر ومددت يدي فتجمعت كل الثمار بين أصابعي انحرفت عيني ووقعت على منظر مذهل، فتسمرت في مكاني واعتراني شعور لا أستطيع وصفه.

كان منظراً مذهلاً بحق..

وفي كل ليلة وحين يأوي الناس إلى مخادعهم أحمل سلماً خشبياً وأسنده على الجدار وأبحر بعيني في ذلك المنظر المذهل..